جان كلود فيلو

اللاشعور

بحث في

خفايا النفس الإنسانية

ترجمة الدكتور

علي أسعد وطفة

اللاشعور

بحث في:

خفايا النفس الإنسانية

جان كلود فيلو

xjean-claude Filou

ترجمة الدكتور: علي وطفة

رئيس قسم أصول التربية

جامعة دمشق - كليّة التربية

اللا شعور

خفايا النفس الإنسانية

تأليف جان كلود فيلو

ترجمة: الدكتور علي وطفة

صورة الكتاب بالفرنسية

Jean - Claude Filloux: *L'inconscient* , P.U.F.,Que sais - je ? Paris 1984. (15e noitidé)'

جان كلود فيللو: اللاشعور، المطابع الجامعيّة الفرنسيّة، باريس، ١٩٨٤ (الطبعة الرابعة عشره).

الطبعة الأولى بالعربية ١٠٠٠ نسخة، ١٩٩٦

حقوق الطبع محفوظة للمترجم

دار معد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب ١٠٨٧٧- هاتف ٦٣٣٤٠١٠

تعريف بالمؤلف

كلود فيلو من كبار علماء النفس في فرنسا وأستاذ علم النفس في جامعة السوربون الخامسه. ألف كتبا عديده منها:

- علم نفس الحيوانات

Psychologie des animaux.

- الشخصيه

La personalité.

- حيوية العقل

Le tonus mental.

- سيكولوجيا الجماعات

Psychologie des groupes

- المطول في العلوم التربويه

Traité des sciences pédagogiques.

- رالف لنتون وتطور الأنتربولوجيا الثقافيه

Ralph Linton et l'évolution de l'anthropologie culyuelle.

- دوركهايم والاشتراكيه

Durkheim et le socialisme

المترجم في سطور

- علي اسعد وطفة، من مواليد دمشق عام ١٩٥٥ .
- دكتوراه في العلوم الإنسانيّة، من جامعة كان في Caen فرنسا.
- عضو اتحاد الكتاب العرب
- رئيس قسم أصول التربيّة في كليّة التربيّة بجامعة دمشق.
- وكيل كلية التربية سابقا.

من أعماله

أولا: كتب مؤلفه:

١-علم الاجتماع التربوي: كتاب جامعي، جامعة دمشق، مطبعة الوحده، ١٩٩٢.

٢-الشباب والمرأة: مطبعة الإتحاد، دمشق، ١٩٩٤. (بالمشاركة)

٣--الشباب قيم واتجاهات ومواقف: مطبعة الإتحاد،دمشق، ١٩٩٤.(بالمشاركة).

٧. ***العلاقة التربويّة بين الطفل والتلفزيون***: مجلة **جامعة دمشق**، ١٩٩٤.

٨. ***اتجاهات الشباب نحو مبدأ المساواة بين الجنسين في سوريا***، مجلة **جامعة دمشق**، ١٩٩٥. *(بالمشاركة)*

٩. ***اتجاهات الشباب نحو عادات الزواج ومظاهره***، مجلة **جامعة حلب ١٩٩٥**.

١٠. ***مواقف الشباب من وسائل الإعلام الجماهيرية***، مجلة شؤون اجتماعيّة الصادرة في دولة **الإمارات العربيه**.

توطئة

بقلم: د.علي وطفة

كانت النفس الإنسانية، وما زالت، شغل الفلاسفة الشاغل، وهاجس الحكماء، وغايّة العقلاء. وما زال الإنسان، منذ بدء التكوين، يتوغل في متاهات هذه النفس، باحثا في معانيها، مسحورا بإعجازها، مبهورا بما أودعتها الطبيعة فيها من أسرار كونية، ولا ريب في ذلك، فأسرار الحياة كامنة في أسرار النفس الإنسانيّة، متجسدة فيها، وما أعظمها إذ يتجسد مبدؤها في القول العربي المشهور:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!.

دعا سقراط إلى معرفة النفس الإنسانيّة، ووجه النداء إلى الإنسان بعبارته المشهوره: أيها الإنسان اعرف نفسك. حيث كانت معرفة النفس الإنسانيّة، بالنسبة إليه ، أشرف المعارف وأطهرها. ثم جاء افلاطون، فنظر إليها في علیائها عارفة، طوافة في عالم المثل، تستمد شعاع

ضيائها من مثل الخير الأعلى، غايّة الوجود ومنتهى الغايات. وهي عند أرسطو أرقى مراتب الوجود الإنساني، وفيها جانب نوراني متجرد عاقل، وهي، فوق ذلك كله، صورة النفس الإنسانيّة وغايتها.

وقد سطر فلاسفة العرب أجمل المواقف إزاء النفس الإنسانيّة، إذ تأملوها وقلّبوا في معانيها، وهتكوا حجبها، وأفاضوا في الحديث عن أسرارها، ووصفوا سحر تجليّاتها، وتبصّروا في جوانب عظمتها، تيمنا بالقول العظيم: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، فجاءت فلسفة التصوف العربي تتويجا لرؤى عربيّة أصيلة رائعة في ماهيّة النفس الإنسانيّة وفي صروفها، وها هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا يضفي عليها مظاهر الخلود والتجرد، فهي التي هبطت الينا من عالم الخلود، وهي التي تعود بعد الموت صافيّة نقيّة، إلى عالم نوراني لايعرف غير الصفاء والنقاء. يقول في عينيته هاتكا بعض أسرار النفس الإنسانيّة:

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

حتى إذا قرب المسير من الحمى

ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت

ما ليس يدرك بالعيون الهجع

وبدت تغرد فوق ذروة شاهق

والعلم يرفع كل من لم يرفع

ويفرد الفلاسفة اللاحقون فصولا لمباحث النفس، فمنهم من أدركها في مظهرها، ومنهم من أدركها في جوهرها، فنسبوا إليها جوهر وجود روحي متفرد مجانس للقوى الكونيّة النورانيّة العليا، وإذا كان منهم من يقول بفنائها، فمنهم من يرفع شعار خلودها وغائيتها. ويمكن الإشارة في هذا الصدد، بصورة خاصة، إلى شيلنغ، وهيجل، وشوبنهور، وكاروس، وهارتمان، بوصفهم أبرز المفكرين الذين تناولوا الجوانب الغامضة للنفس الإنسانيّة بالدراسة والتأمل والتحليل.

ثم جاء علم النفس، الذي تحرر من طغيان الفلسفة، في نهايّة القرن التاسع عشر، ليبحث في مظاهر النفس الإنسانيّة، وفي الصيغ الموضوعيّة لحركة وجودها وكينونتها، فاتجه إلى دراسة المظاهر الموضوعيّة القابلة للقياس والملاحظة، من تفكير، وتذكر، وانتباه وحدوس، وقدرات عقليّة، وملكات فكريّة، وأخذ لنفسه تعريفا هو علم نفس الشعور. وتجلى هذا الاتجاه في سيكولوجيا وولف Wolf، ومولر rMulle، وبروكا Broca، وفكنر Fechner، وفوندت Wundt الذي وضع

كتابه المشهور مبادئ علم النفس الفيزيولوجي.

ولم يتوقف علم النفس عند حدود المظاهر الخارجيّة القابلة للملاحظة في دراسة النفس الإنسانيّة، حيث عكف فريق، من علماء النفس، على دراسة بعض الجوانب الخفيّة للنفس الإنسانيّة، التي لا تتبدى بصورة واضحة قابلة للملاحظة. وبدأ علماء النفس، منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، يكرسون جهودهم في البحث عن دلالات القوى اللاشعوريّة، والمعاني التي تحرك نوازع النفس الإنسانيّة، وتحكم حركة وجودها. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى كل من: بيير جانيه، وبينيه، وريبو، وشاركو، وبرنهايم، وكان لجميعم فضل التمهيد، عمليا، لظهور سيكولوجيا الأعماق، أو علم نفس اللاشعور، الذي تجلى بأنقى صوره، وأزكى تجلياته، في علم النفس الفرويدي، الذي يرسم خطوط الحياة النفسيّة، ومجاهلها، في لوحات علميّة بالغة الأصالة والتفرد.

يمايز فرويد بين جانبين أساسيين في النفس الإنسانيّة، هما : الشعور واللاشعور، ويعطي لمنطقة اللاشعور أهميّة تفوق، إلى حدّ كبير، الأهميّة التي ينطوي عليها الجانب الشعوري. فإذا كان للشعور اتساع البحيرة، فإن الجانب اللاشعوري من النفس الإنسانيّة يضاهي في اتساعه اتساع المحيط. ومن أجل التمييز بين أهميّة كل جانب من هذين الجانبين يسوق فرويد مثالا، يشبّه فيه الحياة النفسيّة للإنسان بجبل من الجليد، وهو إذ يغوص في لجج المحيط تطفو قمته على سطح الماء. ويشير فرويد إلى القمة بوصفها ممثلة لمنطقة الشعور في النفس

ناصيف الذي غطى هذه الترجمة برأيه وملاحظاته.

ولن يفوتني أن أوجه خالص تقديري وشكري إلى الزميل الأستاذ **راجح تميم** الذي بذل جهدا كبيرا في قراءة المخطوط، وتصفيّة الأخطاء النحويّة مانعا إياها من التسلل إلى متن هذه الترجمة .

ويسرني أيضا أن أشكر الأختان الزميلتان: **ريم زكريا**، **ووفاء عيسى**، لجهودهما الكبيرة التي بذلت لحمايّة النصوص من الأخطاء المطبعيّة، ولإبدائهما بعض الملاحظات الهامة حول المخطوط المعرب.

وفي الختام أتمنى أن يكون هذا العمل في متناول المتخصصين، والطلاب، والدارسين، والمهتمين، والقراء العرب عامة، وأن يقدم لهم صورة واضحة عن قضايا العمق اللاشعوري للنفس الإنسانيّة. ويسرني، في النهايّة، أن تكون الترجمة الحاليّة ، لكتاب اللاشعور، إضافة علميّة جديدة للمكتبة العربيّة، وعونا لمن يجد فيها العون.

د.علي وطفه

دمشق ٢٠/١١/١٩٩٨

مقدمة

جاء الاعتراف العلمي بالنشاطات اللاشعوريّة للنفس الإنسانيّة متأخرا، حيث بقيت هذه النشاطات اللاشعوريّة، في مستواها العلمي، خارج دائرة الاعتراف العلمي، لمدة طويلة من الزمن، عند علماء النفس. هذا ويعود مفهوم ما قبل الشعور Subconcsience إلى الفيلسوف الألماني الشهير ليبنتز Leibeniz ، الذي أظهر ملامح هذا المفهوم في نظريته الشهيرة الموسومة: *بالإدراكات الصغرى Petites perceptions*. وتتجلى ظلال هذا المفهوم، لاحقا، عند بعض علماء النفس في نهايّة القرن الثامن عشر، ولا سيّما، عند علماء النفس الذين تناولوا الجوانب اللاشعوريّة للحياة النفسية. ومع ذلك فإن الرؤيّة الجادة، ذات الطابع المنهجي، لجوانب الحياة النفسيّة اللاشعوريّة مازالت حديثة العهد نسبيا.

لقد أعلن بيرغسون Bergson ، في عام ١٩٠١، بصورة

عبقريّة، أن إدراك الجوانب اللاشعوريّة للحياة النفسيّة عند الإنسان سيشكّل المهمة المستقبليّة لعلم النفس في القرن العشرين، وقد عبر عن هذه النبوءة بقوله:

« إن استطلاع الجوانب اللاشعوريّة للحياة النفسيّة فعل يمكّن الإنسان من التوغل إلى عمق النفس الإنسانيّة، واستطلاع خفاياها، وذلك وفق مناهج عمليّة خاصة، وتلك ستكون مهمة علم النفس في القرن القادم. وإنني لا أشك أبدا بأهميّة الاكتشافات في هذا الميدان، التي تعادل، من حيث خطورتها، الاكتشافات التي ظهرت في العصور السابقة، ولا سيّما، في مجال الفيزياء والعلوم الطبيعيّة ».

وعلى أثر الرؤى الفلسفيّة، ما بعد الكانتيّة، بدأ علم النفس الطبي التجريبي يسجل اكتشافات هامة، منذ عام ١٨٨٠. وقدر لنبوءات بيرغسون أن تسجل حضورها في صلب الانتصارات الرائعة للتحليل النفسي، وهي الإنتصارات التي بدأت تتحقق منذ عام ١٩٠٠، ويأتي ذلك في الوقت الذي ظهر فيه كتاب فرويد Freud الشهير *تفسير الأحلام L'interprétation de rêves*، وهو الكتاب الذي يعالج جوانب الحياة النفسيّة اللاشعوريّة، التي كانت خارج دائرة الأبحاث النفسيّة في المراحل السابقة، حيث بدأت هذه الجوانب اللاشعوريّة تترجم، على يد فرويد، إلى إسقاطات بيانيّة تتميز بالوضوح والتماسك.

ومنذ هذه اللحظة التاريخية، بدأت مدرسة التحليل النفسي تطرح نفسها مدرسة لعلم نفس الأعماق *Psychologie de profonds*، أو مدرسة لعلم نفس اللاشعور *Psychologie de L' inconscience*.

وغني عن البيان، أنه قد ترتب على هذه النزعة المدرسيّة، لسيكولوجيا الأعماق، أن تواجه صعوبات كبيرة، وتحدّيات ذات خصوصيّة إبيستيمولوجيّة[1] أثرت على مستوى نماء وتطور فعاليات النمو المعرفي في هذا الاتجاه.

وتتمثل هذه الصعوبات في قبول علماء النفس لبعض الفرضيات البعيدة عن دائرة التوجهات النقديّة، ومثال ذلك التأكيد المسبق على وحدة هويّة الظواهر النفسيّة الشعوريّة منها واللاشعوريّة. وفي إطار هذه الشروط وجدت مفاهيم: اللاشعور، والعقل الباطن، وما قبل الشعور، مقاومة منهجيّة، حيث نظر إليها بوصفها مفاهيم اعتباطيّة متوحشة منطويّة على تناقضات صارخة.

لقد بينت الملاحظة أن اللاشعور يتغلغل في تجليات الحقيقة القابلة للملاحظة، ويتجلى ذلك في الموقف اللاشعوري المؤثر على الأفعال الشعوريّة، كما يظهر ذلك أيضا داخل

---

[1] إبيستيمولوجيه Epistemologie: تشير كلمة إبيستيمولوجيه إلى نظريّة العلم وتستخدم هنا للدلالة على إشكاليّة علميه تتعلق بالصعوبات المنهجيه لتطور الأبحاث في مجال دراسة اللاشعور (المترجم).

الحالات النفسيّة الواعية، التي لا يمكن تفسيرها إلا من خلال النظر في مكونات الحياة النفسيّة اللاشعوريّة.

يتضمن هذا الكتاب عرضا نقديا للأسس المنهجيّة الخاصة بمفهوم اللاشعور، ويسعى إلى استجلاء طبيعة المفاهيم النفسيّة الخاصة بالشعور أيضا. وإننا على يقين بأننا سنجد أنفسنا في مواجهة مسائل تتجاوز، من حيث الأهميّة، حدود القضايا المطروحة في هذا السياق. وفي إطار ذلك فإننا سنعمل على إضاءة بعض المفاهيم والمحاور الفرويديّة الهامة مثل: مركزيّة اللاشعور في نظام الوجود النفسي، وطبيعة هذا الوجود مثل: هل هو جوهري نوعي؟ هل هو أحادي أم متعدد؟ وبالتأكيد ستكون فرصنا كبيرة في التعرف على المفاهيم الأخيرة، التي طرحها فرويد عبر معالجات أكثريّة المحللين النفسيين المعاصرين. وأنه لحري بنا هنا أن نستخدم، في سياق لغتنا في هذا الكتاب، مفهوم اللاشعور ***Inconscient*** كصفة وليس كاسم ***Inconsience***، وبصيغة الجمع عندما يتعلق الأمر بالعمليات والوظائف الخاصة بدراسة واقع اللاشعور. وسيكون حالنا، في إطار هذا العمل، حال المؤلف الذي يحمل أحجاره ويحدد لها قيمتها في مناطق البحث والدراسة، ولذلك فإنه لمن الضرورة بمكان، ومن غير احكام مسبقة، وخلاصات تركيبيّة، أن ندرس اللاشعور بشكل مستقل عند مختلف المنظرين، عند: جانيه Janet ، وفرويد Freud ، ويونغ Jumg، ولاكان Lacan... الخ.

تنطلق منهجيتنا، المعتمده في داخل هذا الكتاب، وفقا لهدي مخطط تاريخي واضح، وذلك يمنحنا طاقة أكبر لعرض الأفكار وتحديد الاتجاه العام للاكتشافات المتتابعة في هذا الميدان. إذ أنه لمن الصعب أن نتحدث عن اللاشعور دون العودة إلى المخطط التحليلي الفرويدي، حيث يلاحظ ، في هذا الإطار، أن الطروحات الفرويديّة تتجذر في عمق التجارب والخبرات الواقعيّة، التي بدأت منذ عام ١٨٨٠، ولا سيّما، في مدرسة سالبيتيير لشاركو Salpetriere de Charcot، وفي مدرسة بيرنهايم Bernhein في نانسي Nancy.

وفي النهايّة لابد من الإشارة، بشكل مسبق، إلى الفلسفات الواقعيّة الخاصة باللاشعور، ولا سيّما، فلسفة هارتمان Hartman المعروفة، التي كان لها أكبر الأثر في خلق المناخ المناسب لمعرفة النشاطات والفعاليات اللاشعورية. إذ أنه لمن الأهميّة بمكان ألا نتجاهل، أبدا، الخلفيات الفلسفيّة ولا سيّما الحياة اللاشعوريّة عند الإنسان.

يتضمن هذا العمل ثلاثة أقسام أساسيّة، حيث يشمل القسم الأول معالجة لمسألة اللاشعور قبل فرويد، وتُعرض هذه المرحلة في فصلين أحدهما مكرس لدراسة الجوانب الفلسفيّة الرائدة لمفهوم اللاشعور، والآخر يعالج منظومة الأعمال التجريبيّة، والممارسات العلميّة المهنيّة في هذا الميدان.

ويتضمن القسم الثاني التحديدات الفرويديّة لمسألة اللاشعور. أما القسم الثالث فيتناول الاتجاه العام للمدرسة الفرويديّة، والتغيرات التي أحدثتها الأعمال الفنيّة والأدبيّة لعلم نفس اللاشعور، حيث يجري التركيز على مفهوم اللاشعور عند فرويد.

القسم الأول

اللاشعور قبل فرويد

فلسفة اللاشعور

الفصل الأول

يسجل مفهوم اللاشعور حضوره الفلسفي في أعمال كبار الفلاسفة الميتافيزيائيين الألمان، ولا سيّما، في المرحلة ما بعد الكانتيّة Postkantienne، ولا سيّما، عند شيلينغ Shelling، وهيجل Hegel، وشبنهور Schopenhaure. ويمكن لنا أن نحدد اتجاهين فلسفيين أساسيين يعكسان صورة الحياة اللاشعوريّة، وهما: اتجاه كارل غوستاف كاروس Carus، واتجاه هارتمان Hartman، وكلاهما ينطوي على طابع ميتافيزيائي[٢]. فكلاهما ينطلق من نقطة واحدة مشتركة وهي أن العالم والطبيعة نتاج تطور مبدأ واحد مثاله المطلق

---

[٢] ميتافيزياء: يشير هذا المفهوم إلى القضايا الكونيه الماورائيه، ويبحث في أصل الوجود وماهيته وطبيعته (المترجم).

عند شيلنغ، والفكرة عند هيغل، والإرادة عند شوبنهور. ومن اجل الارتفاع بمفهوم اللاشعور Inconscient، إلى مستوى هذه المبدئيّة، يبني كل من كاروس، وهارتمان افتراضات عمليّة بالغة الخصوبة. وهنا ينبغي علينا، قبل الدخول في جوهر المسألة، أن نستعرض، بصورة سريعه، بعض ملامح نظام شوبنهور Schopenhauer ، ولا سيّما، في مجال فلسفة اللاشعور.

أولا . شوبنهور:

Schopenhaur

لقد طرحت فلسفة شوبنهور نفسها في العالم بوصفها إرادة Volonté من جهة، ورؤيّة جديدة للحياة من جهة أخرى، وذلك منذ عام ١٨١٨. فالعالم ارادة في جوهره، وهذا يعني بالنسبة لشوبنهور وجود قوة غير عقلانيّة نشطة، قوة فاعلة محركة، موجودة في أصل الكائن الإنساني. فالإرادة الموضوعيّة، التي تظهر في دائرة التصور بحدود لا متناهيّة، تتبعث من صلب قوى ماديّة، وتصل إلى الإنسان مرورا بالجماد والنبات والحيوان. وهذا يعني أن قوى الطبيعة تتجسد في إرادة، وهي إرادة واحدة، تتجذر في عمق العلاقات السببيّة الفيزيائيّة، وفي داخل ردود الأفعال الإنسانيّة، كما في عمق الفعل الإنساني. والإنسان، بالتالي، هو النقطة التي تصل إليها الإرادة في اندفاعات

صعودها، وهي رأس الهرم المشكّل تحت درجة عاليّة من تجسدات الإرادة.

ويتجرد مفهوم الإرادة، عند شوبنهور، من خاصة الوعي، فهي إرادة عمياء جاهلة، ومن هنا ينطلق شوبنهور ليشرح لنا في كتابه «***أولويّة الإرادة على العقل Primat de la volonté sur l'intillect***»، بأن المعرفة والعقل يُوظفان لخدمة هذه الإرادة ؛ ومن هنا فإن قراراتنا الحرة، وبعيدا عن أن تكون نتاجا لطاقة التفكير، هي في الواقع تجسيد لإرادتنا الجوهرية. ولذلك فإن مسوغات العقلنه، التي نضفيها على أفعالنا، هي مجرد إضافات مزيّفه، فالذكاء كما يعتقد شوبنهور غريب عن الحلول التي تطرحها الإرادة.

فنحن، غالبا، ما نجهل حدود مشاركتنا في بناء خطة ما جهزناها بأنفسنا ونفذناها، ولكننا، مع ذلك، نشعر بمدى قوة الإرادة التي كانت خلف عمليّة البناء. ما يريد شوبنهور Schopenhauer أن يؤكده هو: ***أن الإرادة هي المطلق والسيد وأن الذكاء هو التابع الذي يمارس دور الخدمة والطاعة***". وتأتي هذه الملاحظة الإعجازيّة للوهلة الأولى من مبدأ أن الإنسان قد يجهل حقا الأسباب الحقيقيّة الكامنه خلف أفعاله.

ثانيا . كارل غوستاف كاروس:
Carl Gustav Carus

يدين كاروس C.G.Carus، في واقع الأمر، إلى شوبنهور، وذلك على الرغم من انتمائه الواضح إلى شيلينغ Schelling. فاللاشعور، عند كاروس، مبدأ سماوي، يهيمن على تكوين العالم، ويسيطر على معطيات حياتنا الروحيّة. كتب كاروس يقول: ***إن اللاشعور تعبير ذاتي يعيّن، بشكل موضوعي، ما نعرفه نحن تحت اسم الطبيعة***". وكما هو الحال عند شوبنهور يعتقد كاروس ***أن هناك هويّة باطنيّة لكل وجود***؛ وهو يشير بذلك إلى مراحل متعددة للوجود اللاشعوري سابقة لتشكّل الشعور: في البدايّة تعمل الفكرة اللاواعيّة على خلق عضويّة الفرد، ثم يظهر الشعور الأول، وهو وعي العالم الخارجي، الذي يرتبط، عميقًا، بغريزة الحياة العضويّة ؛ وبعدها تتبدى الروح الواعيّة، ويتشكّل وعي الذات الشعوري. وعندما تتحقق المرحلة الأخيرة، يتعايش الوعي واللاوعي، في صيغة جدليّة واحدة لا انقطاع فيها، حيث ينضح التأثير المتبادل بالخصوبة الدائمة، ويتميز بالقدرة على خلق الطاقة المتجدده والذكاء، وذلك كله، عبر أفعال دائمة يحققها اللاشعور دون انقطاع.

ويميز كاروس، في داخل الروح أو النفس الإنسانيّة، بين لاشعورين: يتميز اللاشعور الأول بدرجة عاليّة من الغموض

والظلامية، بينما يأخذ اللاشعور الآخر هيئة نموذج يتشكّل تحت تأثير العمليات النفسيّة الواعيّة. يقول كاروس في هذا الخصوص:

" هناك مكان في الروح لا يمكن لأي اشعاع واع أن يتخلله، وهو ما يمكننا أن نطلق عليه اللاشعور المطلق Inconscient Absolu ".

وهناك، بالإضافة إلى ذلك، ما يسمى باللاشعور النسبي Inconscient Relatif، الذي يشير إلى فصول حياة واعيّة انكفأت، فيما بعد، إلى كيان لاشعوري. ويشير تحليل كاروس، من جهة أخرى، إلى تعذر إدراك ماهيّة الإحساس Sentiment، دون العودة إلى اللاشعور نفسه:" **إن كل ما يجري، وما يحدث، يبدأ، وبشكل مسبق، في ليل نفوسنا اللاواعيّة ؛ إن كل ما يحدث في داخل بنيتنا النفسيّة من جهة، وكل التأثيرات التي تنجم عن تأثيرات صادرة عن النفوس الأخرى في هذا الكون من جهة أخرى، ينهض من عمق الظلام اللاشعوري ويستقر في ضوء الحياة الشعوريّة. وانطلاقا من ذلك، فإن كل هذه التراتيل والأنغام، وهذه المُسَارة الرائعة، الخاصة بالانتقال من اللاشعور إلى الشعور، تعبر عن مفهوم الإحساس "Sentiment** .

وفي النهايّة، إذا كان هذا الإحساس يشارك في الحياة اللاشعورية، فإن الحلم هو لحظة لاشعوريّة تنبض داخل الشعور. فعالم الأحلام والأفكار والمشاعر، الذي يضرب جذوره في عالم اللاشعور، يستمر في الظهور، على نحو دوري أو متقطع، في ساحة

الوعي. فالحلم نتاج لوجود مزدوج ينطلق من ساحة الشعور واللاشعور في آن واحد: إنه نتاج لتزاوج بين الشعور وبين اللاشعور. ومن هنا يمكن تفسير الأنغام الخاصة بالحلم ، وذلك عندما يتم اختيار الصور التي تتوافق مع المشاعر الحقيقيّة لها، فالروح تفعل هنا فعل الشاعر اليقظ الذي يبحث عن الصفاء المطلق للصور، هذه التي يجب أن تتوافق مع المشاعر الخاصة بها، والتي تستيقظ في عمق النفس. وهنا تكمن الصيغة التي تحدد حدْس كاروس الفلسفي الذي يقول:"إن **مفتاح الحياة النفسيّة الواعيّة الشعوريّة يكمن داخل الحياة اللاواعيّة اللاشعوريّة للفرد**".

ثالثا . فون هارتمان

Von. Hartmann

لا يختلف النظام الفلسفي لهارتمان (١٨٦٩)، في مجال فلسفة اللاشعور، عن سابقيه، فهي فلسفة تأمليّة ميتافيزيائيّة بالدرجة الأولى. تأخذ الفلسفة اللاشعوريّة لديه نوعا من المطارحة الهيغيلية، حيث يشكّل اللاشعور، كما يذهب، النفس الكليّة للوجود. وإذا لم يكن في نيتنا أن نشدّد حول هذا الجانب في أعمال هارتمان فإننا سنركز على بعض المحاور التي يتبين فيها أن: ***اللاشعور لا يتدخل في العمليات العضويّة للإنسان فحسب، بل يحدد اتجاهات الفعل والنشاطات***

نلاحظ غير نتائجها الأخيرة المنظمة والمعدلة ؛ فكل فعل شعوري يضرب جذوره داخل الحياة اللاشعوريّة ".

لقد بقيت فكرة اللاشعور في ذلك العصر تطرح نفسها على الباحثين، ولا سيّما، الأبعد عن مجال الفلسفة، والأكثر توجها نحو الظواهر التجريبيّة التي سنتابعها لاحقا.

الواعيّة للفكر، وهذه العمليات ترتكز، في نهايّة الأمر وبالضرورة، على قاعدة الحياة اللاواعية.

لقد قدر لهارتمان أن يمايز، بأصالة، بين اللاشعور في مجال الحياة العضويّة، وبين اللاشعور في مجال الحياة النفسية. حيث يمثل النوع الأول الروح التي توجه الغايّة البيولوجيّة، وتتمثل في مظاهر العضويّة الغامضه، وهذا يعني وجود حياة نفسيّة في العضويّة تنطلق من اللاشعور.

فالافعال اللاإراديّة هي ردود أفعال لا يمكن أن تجد قانونيّة تفسيرها، وبالتالي فإن المبدأ الداخلي لفعل منعكس لا يمكن أن يكون غير مبدأ روحي لاشعوري، وينسحب ذلك على نشاط الغريزة Insect كغايّة لاشعوريّة، ونشاط يسعى إلى تحقيق هدف دون أن يعيه. وتنسحب هذه الفكرة على مبدأ التغذيّة، فالتغذيّة فعل يسير على هدي مبدأ نفسي ينطوي على غائيّة بيولوجيه. ويقول هارتمان في هذا الخصوص: إنه لا يمكن لأي تفسير أن يحدد لنا هذه التغيرات الذكيّة التي تعتري الجسد، ولا بد لنا ، لتفسيرها، من الاعتقاد بتدخل إرادة تتصف بالعراقة والذكاء . وباختصار فإن العنايّة الإلهيّة توجد في كل منا في داخل الظواهر الفيزيولوجيّة نفسها.

ويشير هارتمان، بخصوص الحياة الروحيّة، إلى عدة عمليات لاشعوريّة تلعب دورا هاما في عمليّة إدراك المفاهيم، وبناء المحاكمات العقليّة ؛ ويؤكد ، من جهة أخرى، على أهميّة اللاشعور الذي يوجه

الحياة الشعوريّة عند الأفراد: فالحب إرادة تسعى إلى تحقيق هدف من غير وعي، واللذة هي صدى إرضاء الحاجات أو اكراهات إرادة مجهولة. وفي هذا الصدد يشير هارتمان إلى شوبنهور عندما يبيّن لنا كيف تتملكنا احاسيس اللذة عندما ننفذ أفعالا نحكم عليها بشكل مسبق بأنها منفرة وكريهة، ألا يعني ذلك بوضوح أن إراداتنا تسعى إلى تحقيق غايات أخرى غير هذه التي يسعى إليها ذكاؤنا ووعينا.

فالاكتشافات العبقريّة تصدر عن اللاشعور، وهي نتاج دائم لعمليات تحدث في عمقه، ومنها عمليّة اختمار الأفكار، ومن هذا المنطلق تجد كل المسائل التي ترتبط بالحياة حلولا لها مقترحة من قبل اللاشعور. فهناك إذن قرابة بين اللاشعور الذي ينجب الفعل العبقري، وبين اللاشعور الذي يوجه خطانا نحو اتخاذ القرار، فالحياة الشعوريّة الواعيّة هي دائما انعكاس لهيمنة الحالات النفسيّة اللاشعوريه.

وأخيرا، فإن تحقيق التواصل بين لاوعي الجسد، وبين لاوعي الروح، أمر مرهون بمدى القدرة على تحديد الروح الفرديّة ككلّ لاشعوري متكامل، وذلك في إطار وحدة الوظائف العضويّة والنفسيّة للفرد.

خلاصة

حاولنا، في سياق استعراضنا للفلسفات الثلاث، أن نمايز بين السطح وبين العمق الميتافيزيائي لعلاقات مجسدة ومحدده، ومع ذلك فإن الفصل بين الطرفين لا يعدو أن يكون شكليا. ومن أجل تحديد العناصر الحقيقيّة، التي تحملها هذه الفلسفات، لا بد من مقاربة واضحة بين مفاهيم اللاشعور المتضمنة داخل هذه الفلسفات.

في البدايّة يمكن القول بوضوح: إن الأنظمة الفكريّة لهارتمان وكاروس هي من نوع الأنظمة النفسيّة. لقد سمحت لهما فكرة اللاشعور أن يُدخلا على منظورهما للكون صيغة سيكولوجيّة حتى في مستوى الحياة المادية. ويمكن لهذه الرؤيّة أو الطريقة في التفكير أن تجد تبريرها فى المستوى الفلسفي. ولكن، في مستوى الظواهر الإنسانيّة، فإن هذه الفكره تجعلنا قاب قوسين أو أدنى من مخاطر الخلط بين اللاشعور النفسي، وبين هذا الذي لا نلحظ وجوده، ولا سيّما، في مجال النشاط الفيزيولوجي أو العضوي.

ويجب علينا، في الواقع وانطلاقا من وجهة نظر متكاملة حول اللاشعور، أن نتحفظ في الاعتقاد بوجود لاشعور على مستوى الحياة الفيزيولوجيّة أو العضويّة: لقد حاول هارتمان أن يقول بوجود الحياة اللاشعوريّة على مستوى الحياة الفيزيولوجيّة، وله الحق في قول

ذلك ؛ ومع ذلك فإنه يجب التمييز بين عالمين أو كينونتين: بين الكينونة الفيزيولوجيّة، وبين الكينونة النفسيّة في هذا المستوى. فالفيزيولوجيا ليس لها صفة الوعي أو اللاوعي وأنه لا يمكن الحديث عن الحياة الشعوريّة واللاشعوريّة إلا عند الكائنات الحيّة التي تمتلك خاصة الوعي، أي في مستوى الكائنات المعنيّة بالظواهر النفسيّة.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن فلسفات اللاشعور كانت في غايّة العطاء والخصوبة في الميدان السيكواجي خاصة. لقد أكدت هذه الفلسفات علىأهميّة قوة لاشعوريّة توجه النشاطات الواعيّة، وبينت، هذه الفلسفات، أيضا، أن اللاشعور يدعم ويعزز الحياة الواعيّة عند الإنسان، وتأخذ الحياة اللاشعوريّة، في إطار هذه الصيغة، طابع الغريزة. لقد عملت هذه الفلسفات أيضا على تحليل دور اللاشعوز في اتخاذ قرارات واعيّة، وفي بناء منظومة المشاعر وتشكيل مظاهر الحلم والعبقريّة.

ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى إحدى الدراسات النفسيّة عام ١٨٨٠ بعنوان: « *دراسات حول الحياة ما قبل الشعوريّة للنفس الإنسانيّة* *Etudes sur la vie subconsciente de l'esprit*» التي تبرز بعض الجوانب الميتافيزيائيّة للحياة اللاشعورية. لقد كتب مؤلف هذه الأطروحة، واسمه كولسونيه Colsonet، في مقدمة كتابه:

" في عمق المساحة الواعيّة عند الإنسان، التي يمكن الإحساس بها، تكمن منطقة مظلمة محشوة بالظواهر النفسيّة لا يمكننا أن

نلاحظ غير نتائجها الأخيرة المنظمة والمعدلة ؛ فكل فعل شعوري يضرب جذوره داخل الحياة اللاشعوريّة ".

لقد بقيت فكرة اللاشعور في ذلك العصر تطرح نفسها على الباحثين، ولا سيّما، الأبعد عن مجال الفلسفة، والأكثر توجها نحو الظواهر التجريبيّة التي سنتابعها لاحقا.

النتائج الأولى التجريبية

الفصل الثاني

لقد أكدت نتائج الأبحاث التجريبيّة الطابع العلمي لمفهوم اللاشعور ولا سيّما في مجال الأبحاث الطبيّة، وبدأت الاهتمامات الطبيّة، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تتمركز بقوة حول مرض الهستيريا Hysterie: وهو مرض عصابي ينطوي على مظاهر لاشعوريّة عديدة. وقد جاءت هذه الاهتمامات في العصر الذي سادت فيه موضة التنويم المغناطيسي الذي وظف لتحقيق غايتين: تسعى الأولى إلى تحقيق أغراض علاجيّة، بينما تتجه الثانيّة لتحقيق أغراض استعراضيّة. وقد أتيح للذين شاهدوا عروض التنويم المغناطيسي أن يلاحظوا الظواهر اللاشعوريّة المتعددة التي تتبدى أثناء عروض التنويم المغناطيسي. ويضاف إلى ذلك الدراسات التي أجريت

حول حالات انفصام الشخصيّة، التي خرجت بنتائج هامة أضيفت إلى حصاد التجارب، التي تؤكد أهميّة الظواهر اللاشعوريّة.

ويمكننا، في هذا السياق، أن نمايز بين هذه المعطيات وفقا لدرجة أهميتها ودقتها، حيث لم يكن لبعض هذه المعطيات أهميّة تذكر إلا من خلال التفسيرات التي أضيفت إليها، ومع ذلك فإن هذه التجارب لم تتجه لتؤكد وجود حالة واحدة من اللاشعور: بعضها كان يركز على أهميّة الذكريات الكائنة خارج الوعي، وبعضها الآخر يؤكد على أهميّة العمليات العقليّة التي تتم خارج دائرة الشعور. وعلى الرغم من هذا الاختلاف فإن هناك عاملا مشتركا واضحا بين الاتجاهين يتمثل في تأكيد الفعاليات اللاشعوريّة المختلفة. والسؤال هنا هو: هل ينبغي إجراء نوع من الاصطفاء داخل تعدديّة هذه التجارب الجاريّة؟

تجدر الإشارة هنا إلى الأعمال الهامة التي أجراها بيير جانيه Pierre Janet، ولا سيّما كتابه: *الأتمتة السيكولوجيّة* Automatisme Psychologique *عام ١٨٨٩* ؛ وكتاب بينيه Binet تشوهات الشخصيّة *Alterations de la personalité* عام ١٨٨٢ ؛ ثم كتاب ريبو Ribot أمراض *الشخصيّة* Les Maladies de la personalité *عام ١٨٨٤*، وكتابه *الحياة اللاشعوريّة والأحداث* La vie Inconsciente et les mouvements *عام ١٩١٤*. ويمكن الإشارة أيضا، في هذا السياق، إلى محاضرات شاركو ١٨٩٠ Charcot حول أمراض الجملة العصبيّة، ويعدّ شاركو من أوائل

الباحثين في هذه المرحله عن الهيستيريا، وأول من نظر إلى هذا المرض بوصفه مرضا نفسيا، فجمع حوله مجموعة من الباحثين في سالبيتريير، ومنهم: بينيه Binet ، وجانيه Janet، وغيرهم حيث شكلوا ما يسمى بمدرسة سالبيتريير.

ويضاف إلى ذلك مجموعة من الاطباء ، الذين كانوا يتابعون أبحاثهم في نانسيNancy ، حول العلاج بالتنويم المغناطيسي ؛ ويمكن الإشاره هنا إلى برنهايم الذي جمع ملاحظاته في كتابه الموسوم: «*الإيحاء وتطبيقاته العلاجية*» ١٨٨٦ ثم في كتابه «*التنويم المغناطيسي والإيحاء والعلاج النفسي*» ١٨٩١.

ويمكن لنا في النهايّة أن نذكر المنشورات الأمريكيه الأولى الخاصة بالمحلل النفسي الأمريكي ميرتون برانس Merton prince، الذي درس في باريس ونانسي، في الفترة الممتدة بين عامي ١٨٧٩ و ١٨٨٢، ولا سيّما كتابه «**تفكك شخصيّة** Dissociation d' une personalité» عام ١٩٠٥.

أولا: الشرود والكتابة الآلية

تعد الظواهر الخاصة بالهستيريا Hysterie في مقدمة الظواهر التي تصدرت موضوعات الدراسات الجاريّة في مجال اللاشعور. فالهستيريا تظهر وفق أشكال متعددة، حيث اعتاد كل من شاركو وجانيه

على التمييز بين نوعين منها: حيث يشير النوع الأول إلى مظاهر إضطرابات عقليّة، مثل: الفقدان الجزئي للذاكرة[٣] Amnesie، والخدار (فقدان الحس) Anesthesie، وفقدان الإرادة Abeulie. أما النوع الثاني فيشمل على حوادث: مثل الشلل Paralysie ، والتصلب أو الإنقباض العضلي Contracture، والتشنج Convulsion. وهذه الظواهر المَرَضيَّه، كما يعتقد شاركو، ذات منشأ نفسي، إذ بينت تجاربه أن بعض هذه المظاهر يمكن أن يحدث ويزول تحت تأثير الإيحاءات التنويميّة. ومن هذا المنطلق يعزي شاركو إلى الهيستيريا قابليّة عاليّة لما يسمى بالإيحاء الذاتي Autosuggestion[٤] .

فالأعراض المرضيّة الهستيريّة: كالشلل الجزئي، والشرود. والخدار، تشكل معطيات كافيّة لاستجلاء بعض جوانب النشاطات اللاشعوريّة بدرجه تجريبيّة ذات موثوقيّة عاليّة.

---

[٣] Amnesie: الفقدان الجزئي للذاكرة، أو الفجوة الذاكرويّة ؛ وهي عبارة عن نسيان أحداث معينة في فترة معينه مع تذكر ما حدث قبلها وبعدها، وهي من إحدى الصفات المميزة للهستيريا (المترجم).

[٤] كان شاركو أول من حاول الربط بين الهيستيريا والإيحاء، وقد تبنى هذه الفكرة كل من بيرنهايم Bernhiem، وبابينسكي Babinski، وجانيه Janet . ويعزي اليوم الدكتور Lorge ، أحد علماء النفس، أهميّة كبيرة للإيحاء والإيحاء الذاتي وخاصة في العصاب. ولقد سمحت أبحاث فرويد، التي سنتحدث عنها لاحقا، بتفسير مرض الولع بالكذب الهيستيري Mythomanie Hesterique وذلك بالعلاقه مع البيئة السيكولوجيّة العميقة للأفراد.

الكتابة الآليّة اللاشعوريّة:

يعرف بيير جانيه Pierre Janet الفعل اللاشعوري بأنه فعل نفسي مجهول من قبل الشخص الذي ينفذه في لحظة التنفيذ ذاتها مثل: فعل الجلوس، المشي، تقليب الصفحات أثناء القراءة، وهي أفعال ننفذها آليا دون أن نفكر فيها، وهي تمثل جانبا داخليا من اللاشعور. لقد بينت التجربة أنه يمكن ملاحظة الأفعال اللاشعوريّة عند بعض المصابين بالهستيريا ، ولا سيّما، عندما يتم تخدير بعض أجزاء الجسد مثل الذراع : حيث تتبدى الأفعال اللاشعوريّة الذكيّة في إطار العلاقة مع النشاطات الفيزيائية. وقد بدا أن هذه الإنفعالات تتم بالتأكيد خارج إطار مركزيّة الوعي. ويتبيّن، في هذا السياق، أن هذه الحالات لا تتعلق بجانب جزئي من السلوك اللاواعي فحسب، بل بإجراءات عقليّة لاشعوريّة، ولكنها تبدو بالضرورة مرتبطة بواقع هذه الأفعال.

ويمكننا هنا أن نسرد وقائع تجربة نموذجيّة حول هذه المسألة: قام أحد المحللين بتخدير أحد المصابين بالهستيريا، دون علم من قبل المريض، ثم قام المجرب بإخفاء يد المريض المخدره عن نظر المريض بتوسط عازل، وبعد ذلك بدأ بتحريك يد المريض وإثارتها بطرق مختلفة، ثم تركها لتستمر في متابعة الحركة. بعد ذلك قام المجرب بوضع قلم بين أصابع يد المرض، حيث يمكنه أن يكتب على ورقة مسنودة إلى طاولة، ثم بدأ المجرب يوحي لليد (عن طريق

تحريكها) أشكالا بيانيّة وكلمات مختلفة، وفي النهايّة استطاع المجرب أن يصل إلى نتائج هامة، وهي نتائج لا تظهر دائما في كل مرة بل في حالات خاصة. ففي إحدى المرات بدأت اليد المخدرة، وبعد كتابة الكلمة الأولى، بكتابة آليّة لمجموعة من الكلمات والعبارات والجمل بمفردها، دون تدخل من المجرب، واستطاعت اليد المخدرة أن تسجل عددا من الصفحات الكاملة، دون ان يعرف المريض بما يحدث أو بما تفعل يده شعوريا. وكان المريض في أثناء هذه العمليات يتحدث عن أشياء مختلفة جدا عن هذه الأشياء التي تكتبها يده بصورة آليّة. هذه هي ظاهرة الكتابة الآليّة ويمكن تعريفها بأنها الكتابة اللاشعوريّة، وهي الحالة التي يكون فيها الفرد واعيا، ولكنه يجهل ما تصنع يداه أثناء الكتابة، وبعد هذه المرحله يوضع المريض في صورة ما كتب بخط يده عن طريق القراءة.

ويمكن لهذه الظاهرة أن تحدث عند الأشخاص العاديين الذين لا يعانون من مرض ما، ولكن حدوث هذا الأمر لديهم يأخذ طابعا بالغ التعقيد، حيث يصعب إجراء التجارب عليهم، ولهذا السبب يلجأ الباحثون إلى دراسة هذه المسألة عند الهستيريين..وما تشير إليه هذه الدراسات أن النشاط اللاشعوري يمكنه أن يجري وفقا لصورة ذكاء نشط: مثل المحاكمات المنطقيّة، والدقة الرياضيّة، وهي فعاليات تجري في داخل الحياة اللاشعورية. ويمكن لهذه المظاهر اللاشعوريّة للشخصيّة أن تجد تفسيرا لها في ضوء أحداث ماضية: كانت الكتابات

اللاشعورية، الخاصة بالتجربة المشار إليها سابقا، مرتبطة بأحداث حياة الشخص الماضية، وهي أحداث تقوم على أساس التفكير، وهي أيضا مظاهر ذكيّة لها وجود سيكولوجي أيضا.

الشرود Distraction:

تقود مظاهر الشرود، عند الهستيريين، إلى نتائج متجانسة. فمن البداهة بمكان أنه عندما نركز انتباهنا على موضوع محدد فإننا لا نستطيع، خلال لحظة التركيز هذه، أن نفكر في شيء آخر، ولا سيّما في اللحظات التي تكون فيها درجة التركيز عاليّة، على سبيل المثال: عندما يستغرق المرء في قراءة مشوقة، فإنه قد لا يلتفت إلى الضجة التي يثيرها الآخرون من حوله. فالشرود يتيح مجالا واسعا للنشاطات اللاواعيّة، وغالبا ما يعاني المصابين بالهستيريا من حالة شرود شامله، فمرضهم حالة شرود مفرطة، وهم عندما يتحدثون مع شخص ما ينسون بسهولة بالغة وجود المجرب أو الباحث الذي يكون إلى جانبهم.

ومن هذا المنطلق، فإن إجراء هذه الدراسات يصبح ممكنا جدا على المصابين بالهستيريا. فالمجرب ـ الذي يوجد في دائرة النسيان بالنسبة للهستيري ـ يقترب من المريض ثم يحادثه بصوت منخفض، وهو في سياق ذلك قد يصدر إليه امرا بصوت منخفض مثل: ضع يدك على رأسك، وبعدها يقوم المريض بتنفيذ الأمر، حيث يضع يده على رأسه دون أن يدري لماذا يفعل ذلك. هذا ويمكن للمجرب أن يوحي للمريض

بإجابة النفي أو الإثبات عن سؤال يطرح عليه، ويمكنه أيضا أن يوظف ظاهرة الكتابة الآليّة اللاشعوريّة ليحصل من المريض على إجابات متعددة بواسطة الكتابة. ومما لا شك فيه أن هذه الظواهر حوادث تعتمد على الذاكرة والتفكير، وتشتمل على المظاهر الإدراكيّة المعروفة عند الفرد.

لقد أجرى جانيه Janet تجارب عديدة لدراسة المظاهر العامة للفعل اللاشعوري، وقد خلصت هذه الدراسات، ذات الطابع النفسي، إلى بعض النتائج منها: لا يمكن للملاحظ المجرب أن يقرأ سوى بعض الحركات والإيحاءات اللاشعوريّة للشخص الذي يخضع للتجربة: فقراءة التفكير (عن طريق قراءة ملامح الوجه) التي يقوم بها بعض العرافين (المبصرين) يمكن أن تستند إلى معطيات حركاتنا اللاشعورية [٥] .

فالمجال النفسي يرتبط، عند كل من بيير جانيه وليون بينيه ، بمنظومة من الأفكار والحركات اللاشعوريّة. فالوسيط الروحي (العراف Medium) ليس في نهايّة الأمر سوى شخص يستطيع، بسهولة كبيرة، أن يبني اتصالا حر مع الجانب اللاشعوري في الشخصية.

---

[٥] العراف الذي يأخذك بيدك نحو المكان الذي أخفيت فيه شيئا ما يتابع فحسب الحركات اللاشعورية (انظر كتاب بينيه استلاب الشخصيّة Les alienations de la personalité).

ثانيا . السرينمه [٦] والتنويم المغناطيسي

Le somnabulisme et hypnose

لننظر الآن في بعض الظواهر الأكثر تعقيدا، والأكثرمقاومة للتفسير، ولا سيّما ظواهر الإيحاءات التنويميّة المغناطيسيّة، والسرنمه ومجموعة أخرى من الظواهر الجانبيّة، ذات الصلة مع اللاشعور.

ويمكن التركيز، في هذا الخصوص، على بعض الحالات، التي تتجسد كسلوك كلي للشخص، وليس كمجرد سلوكات جزئيّة منفصلة. وتحدث هذه الحالات السلوكيّة المعنيّة في حالة غياب كامل للوعي الشعوري، أي أنها تنطلق، في مسارها، من عمليات ذهنيّة لاشعورية. وهنا يمكن لنا أن نستعرض حالة الإيحاءات ما بعد التنويم المغناطيسي، وهي حالات نفسيّة لاشعوريّة تستثير بوضوح كبير سلوكات واعيّة شعوريّة.

الإيحاء: LA suggestion

يجسد التنويم المغناطيسي حالة من الإيحاءا ت النفسيّة، ومن أجل دراسة هذه الظاهرة، والوصول إلى قانونيتها، اتجهت الأبحاث إلى

---

[٦] السرنمه Somnabulisme: السير النومي حيث يسير الفرد وهو في حالة نوم أو تنويم (المترجم).

المصابين بالهستيريا، وذلك بسبب قابليتهم العاليّة للإيحاء، والإيحاء سلوك عفوي يؤدي فيه الشخص سلوكا يجسد فيه رأي شخص آخر وإرادته.

يعاني الهستيريون من قابليّة عاليّة للإيحاء، حيث يعلن الدكتور شاركو Charcot ، في هذا الصدد، أنه لا يمكن إخضاع الناس العاديين بسهولة لعمليّة التنويم المغناطيسي، وعلى خلاف ذلك يسهل إخضاع الهستيريين بسهولة كبيرة لإيحاءات التنويم.

وإذا كان التنويم المغناطيسي يتحقق بسهولة عند المصابين بالهستيريا، كما يعتقد شاركو، فإن بيرنهايم Bernheim يخالفه الرأي، حيث يعتقد بأن التنويم المغناطيسي ينجح بدرجة أكبر في حالات غير هستيريّة، هذا ويمكن الإشاره إلى أن بيرنهايم عالج مختلف الأمراض العصبيّة حتى العضويّة منها ولا سيّما مرض عرق النسا La Sciatique عن طريق التنويم المغناطيسي.

التنويم المغناطيسي: Hypnotisme

عندما يتقبل شخص ما الإيحاءات الخاصة بالنعاس فإن التجربة تدل على أنه مستعد وبدرجة عاليّة لتقبل إيحاءات جديدة. ومن أجل إحداث النوم المغناطيسي كان المنومون القدماء يوظفون إشارات معقدة مختلفة لايد للتأثير في الشخص المراد تنويمه.

كان دونوز Deleuze، على سبيل المثال، يمسك بإبهامي

يد المريض، ويرفع يده حتى أعلى رأسه، ثم يعيدها إلى جانبيه، ثم يرفعها إلى اعلى اليدين، وذلك أثناء تركيز عيني المراد تنويمه في اتجاه ما بدرجة عاليّة. ولكن في عصر شاركو وبيرنهايم تقلصتْ هذه الحركات: إذ يكتفى أحيانا بالطلب من المريض أن يركز على شيء لامع يوضع في منطقة عاليّة بالقرب من عينيه، حيث تؤدي هذه الطريقة إلى انتباه مثقل، ثم يوجه إليه أمر النوم بطريقة هادئة. وفي هذا الصدد يقول بيرنهايم: *عندما يقتنع المنوّم باقتراب النوم يكفي أن نمرر اليد قريبا من عينيه حتى يغلق عينيه وينام.* فهناك في واقع الأمر حالة من الإيحاء الذاتي كامنة في أساس عمليّة التنويم، وتلك هي، في النهايّة، رغبة المنوَّم في النوم، وهي التي تشكّل مبدأ التنويم المغناطيسي. وتختلف درجة عمق وسطحيّة حالة التنويم باختلاف الحالات الخاصة بالأشخاص.

السرنمة :

يقوم المنوَّم بتنفيذ عدد كبير من الأفعال المختلفة التي يوحى بها إليه وذلك بصورة لاشعوريّة تامه، وذلك هو حال التجارب السابقة الخاصة بالشرود الهيستيري، فالأفكار الإيحائيّة تستثير سلوكا بصورة لاشعوريّة. يقول بيرنهايم للمنوَّم ، على سبيل المثال: أمسك بهذا الشيء، ومع أن الشيء المذكور لاوجود له، فإن المنوَّم يأخذه بيده

وكأنه شيء حقيقي. ثم يتابع بيرنهايم أوامره للمنوّم قائلا له: تناول هذا الشيء الذي أمسكته وتناوله طعاما، وبعدها يبدأ المنوَّم وكأنه يأكل ما يوجد في يديه ويبلع أجزاءه، ومع ذلك فإنه ليس مهما أن نركز على هذا النوع من التجارب لأن أكثرها ينطوي على صيغة استعراضيه.

تعد ظاهرة هياج الذاكرة Hypermnesie الظاهرة الأكثر أهميّة في هذا المجال، وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها عند المنومين وفي أثناء الكتابة الآليّة: حيث تتدافع ذكريات تعود إلى ماضي سحيق في حياة الشخص المنوَّم، وقدر هذه الذكريات أن تبقى في داخل عالم النسيان المطلق من غير هذه المحاولة التي تسعى إلى إخراجها من أوكارها الوجوديّة. وتكمن هذه المحاولة عندما نثير عند هؤلاء المنومين الرغبة في الكلام، وأنه لمن المدهش حقا أن نلاحظ إلى أي حدّ تكون فيه ذكريات وأفكار هؤلاء، الذين يوضعون في حالة التنويم المغناطيسي، واضحة وجليّة، وهي أفكار وآراء ليس لها أي وجود أو أثر أثناء الحالة الواعيّة للمنوم. يقول جانيه: *إن التنويم المغناطيسي يستثير حالة من الوجود النفسي الممتد بعيدا بأطرافه، كما أنه يظهر إلى الوجود حالات من الأفكار الأصيلة الغامضة*. فهناك نموذج جديد من اللاشعور الذي يظهر داخل هذه الحالات، وهو يرتبط بدرجة عاليّة مع الذاكرة. وبالتالي فإن ما يحدث هنا ليس منظومة من الأفكار التي تتحقق فحسب بل هي منظومة من الذكريات أيضا.

وتتبدى خصوصيّة هذه الذكريات في التنظيم الشفوي، وفي

وجودها المستقل عن الوعي، فالذكريات تسجل حضورها دون وعي من المنوَّم نفسه ؛ ومن المدهش أيضا أن تكون هذه الذكريات أكثر وضوحا في حالة المشي التنويمي (السرنمه) وذلك بالمقارنة مع حالة الكتابة الآليّة التي أشرنا إليها للتو، وذلك لأن السلوك الذي يقوم به المنوَّم يعطي هذه الذكريات صيغة سلوك لاشعوري، ونحن هنا إزاء واقع لاشعوري يتميز بالوضوح والموضوعيّة والواقعية.

إيحاءات ما بعد التنويم: Suggession post-hypnotique

يمكن أن نستعرض هنا ملاحظات أخرى تجعلنا قاب قوسين أو أدنى من ذكريات لاشعوريّة لم تظهر بعد رغم أهميتها. ويتعلق الأمر هنا بإيحاءات، ما بعد تنويميّة Post-hypnotique، قوامها فكرة محددة داخل الذاكرة، يمكنها ان تستثير أفعالا لاشعوريّة داخل السلوك الواعي في إطار شموليته، مع أنها تبقى مجهولة بالنسبة للشخص المنوَّم.

وهناك طريقة جديدة لتحديد الذكريات اللاشعوريّة، فالمشي النومي حالة استحضار للذكريات التي لا تسجل وجودها بشكل صريح. ولكن المجرب يعرف بأنها تمارس قوتها في التأثير على الشخص، وأنها تلعب دور المحرض الحقيقي لأفعال الشخص المنوَّم ؛ ومبدأ هذه التجربة يتسم بالبساطة، ويمكن لنتائجها أن تكون واضحة جدا.

فالشخص المنوَّم يحرك بعض قطع الأثاث الموجودة في الغرفة إذا طلب منه ذلك أو أي شئ من هذا القبيل، ويمكن أن يطلب منه، قبل أن يقوم بالعمل أثناء حالة التنويم، تأجيل أداء هذا العمل والقيام به لاحقا بعد ايقاظه. وهكذا فإن المنوَّم، عندما يستيقظ، يقوم بأداء الفعل أو تنفيذ الأمر، الذي طلب منه أثناء التنويم، دون أن يدري أن ذلك هو استجابة لأمر سابق. وفيما يلي يمكن أن نستعرض تجربة بيرنهايم التالية. يقول بيرنهايم واصفا تجربته هذه:

« لقد أوحيت للمنوَّم ـ بحضور زميل لي هو شاربونييه ـ أن يأخذ واقيّة المطر الخاصة بزميلي، وذلك بعد استيقاظه مباشرة، وأن يفتحها ثم يذهب بها للنزهة في الممر، وأن ينتظر فيما بعد في الصالون، وأن يكرر هذا العمل مرتين على التوالي. ثم قمت بإيقاظه على أثر ذلك، وقبل أن يفتح المنوَّم عينيه بشكل جيد خرجت من القاعة بسرعة. وما حدث بعد ذلك هو أنه قام بأخذ الواقيّة بيده ثم فتحها ودار بها مرتين داخل الممر، ثم سألته ماذا تفعل؟ فأجابني قائلا إنه يتنشق الهواء. ثم سألته لماذا؟ فأجابني قائلا يوجد هنا حرارة عالية. ثم سألته أليست هذه المظلة للسيد شاربونييه؟ فأجاب قائلا خذها لقد اعتقدت أنها مظلتي وسأضعها في المكان الذي أخذتها منه ».

فالشخص المنوَّم، في هذه الحالة، لا يعرف سبب سلوكه هذا، وهو هنا ينفذ، دون درايّة منه ، أوامر لاشعوريّة وجهت له مسبقا أثناء

حالة التنويم. وذلك يؤكد ما يصفه جانيه حول مسألة تأثير الإيحاءات بعد مرحلة التنويم، فالفكرة الموحى بها خلال النوم لا تتلاشى بعد اليقظة، ومع أن الشخص المنوَّم كان قد نسيها تماما، ومع أن الفكرة تسجل غيابا في دائرة وعيه، فهي مع ذلك تبقى قائمة في دائرة لاشعوره وتسعى إلى التحقق.

عندما يوضع الشخص في حالة تنويم مغناطيسي تأخذ الفكرة الموحى بها مكانها في دائرة اللاشعور، وتصبح ذكرى لاشعوريّة بالنسبة له. يقول بيرمنهايم، في هذا الصدد: "*يمكن لنا أن نجعل الشخص المنوَّم يذكر الأوامر المعطاة له، أثناء التنويم، وذلك بشرط أن نطلب منه أثناء التنويم أن يقوم باستذكار هذه الأوامر لاحقا ، ولكن يبدو أن هذه الحالات نادرة جدا.*

ثالثا . بيير جانيه

Pierre Janet

تتبدى أهميّة المسألة اللاشعوريّة في عمق التجارب الجاريّة في هذا الميدان. لقد أشرنا، حتى هذه اللحظة، إلى تجارب عديدة: فيزيائيّة وعقليّة، لأنماط سلوكيّة نابعة من العمق اللاشعوري، ويمكن أن يشار إلى نوعين منها هما:

أولا: العمليات الماديّة اللاشعوريّة، وهي إما أن تكون عمليات سلوكيّة

جزئيّة كالكتابة الآليّة، وإما أن تكون سلوكا كليا مثل السرنمه (المشي أثناء النوم) Somnambulism.

ثانيا: يمكن الإشارة إلى العمليات العقليّة اللاشعوريّة، وتتبدى أيضا في مظهرين فهي قد تكون: إما عمليات معرفيّة كإدراك الواقع الخارجي وإدراك الأوامر المعطاة ، وقد تكون عمليات عقليّة ذهنيّة مختلفة مثل استدعاء الذكريات أثناء السلوك اللاشعوري أوعناصر إيمائيّة بعيدة عن تدخل الوعي.

ويمكن الإشارة، في هذا الصدد، إلى الاعتباطيّة النسبيّة الخاصة بالفصل بين العمليات العقليّة وبين العمليات الماديّة ؛ فهناك علاقة عميقة بين الجانبين، وهما يشكلان، ما يسمى، المجال السيكولوجي للسلوك الإنساني.

اللاشعور والإنحلال: Inconscient et Dissociation

ينظر بيير جانيه إلى الأشياء المنطقيّة في نسق وحدتها، ومن زاويّة أصلها المشترك. وهو يؤكد، في مسار كتاباته المختلفة، على أهميّة الاندفاعات اللاشعوريّة في اللحظة التي يترك فيها الشعور المجال لعمليات نفسيّة لاشعوريّة مختلفة.

فاللاشعور هو الوجه الآخر للشعور، وهو لا يمكنه بحق أن يعبر عن كليّة السلوك النفسي، كما يعتقد جانيه. فعندما تكون الصحة

النفسيّة متكاملة، فإن القوى المتناسقة للشعور تجعله اكثر قدرة على توحيد الفعاليات النفسيّة، مهما كان أصلها، وأكثر قدرة على توحيدها في إطار إدراك مشترك وموحد.

يؤكد جانيه Janet دائما أن الظواهر اللاشعوريّة تتبدى واضحة عند الهستيريين، ويظهر تأكيده هذا جليا في كتابه: « *الآليّة النفسيّة Psycholoyiqie Automtisme* »، وتظهر في أعماله اللاحقة وخاصة في كتابه « *الحالة العقليّة للمصابين بالهيستيريا ١٨٩٣، L'atat mental Des Hysteriques*، ثم « ***العصابيون والأفكار التسلطيّة ١٨٩٨ Nevrosés et idéees fixes***»، وهو، في سياق هذه، يبيّن أن أصول الهيستيريا تعود إلى حالة تفكك سيكولوجيّة، وترمز إلى حالة حصار موجهة ضد الشعور. وهو في هذا الصدد يؤكد على ضعف البنيّة الأخلاقيّة عند الفرد، وعلى البؤس النفسي الذي يشكّل كما يعتقد جانيه خاصة أساسيّة للهستيريين. **إن تقلص المجال الواعي يشكّل تعبيرا عن ضعف في عمليّة النمو العقلي الدماغي العام ويعزز ذلك ضعفا أخلاقيا يتمثل في عدم قدرة المريض على إيجاد وحدته الداخليّة وعدم قدرته على تمثل شخصيته بصورة متكاملة.**

الهستيريا والأفكار التسلطيّة قبلشعورية:

Hystérie et idées fixes subconscientes

يمكن للأفكار التسلطيّة Idées fixes، كما يعتقد جانيه، أن تساعد على إدراك الخصوصيّة التي يتميز بها الهستيريّون، ولا سيّما خضوعهم لأفكار تسلطيّة قبلشعوريّة. وهنا تجب الإشارة إلى جهود بيرنهايم، الذي سبق جانيه بفترة قصيرة، في مجال تفسير بعض المظاهر المَرَضيَّه الهستيريّة في ضوء بعض الأفكار القسريّة، الناجمه عن أصول لاشعوريّة، والتي تتحول إلى فعل وممارسة، وتؤدي عملا مناظرا للأفكار الإيحائيّة التي يكوّنها أحد المنوّمين، وهي، في النهايّة، تساعد على اكتشاف ذكريات لاشعوريّة ذات أهميّة خاصة.

ومن هنا ينطلق جانيه ليحدد الأفكار القسريّة بوصفها ظاهرة إيحائيّة ، حيث تنمو أفكار آليّة، صادرة عن المجال اللاشعوري: وهي، بدلا من أن تتشكل تجريبيا، تتكون بشكل طبيعي وعفوي، وذلك تحت تأثير الخبرات والحوادث الشخصيّة للفرد. وبالتالي فإن تطور هذه الأفكار يأتي كنتيجة مباشرة لعمل ذهني عند الهستيريين، وكنتيجة لضعف في مستوى التكامل النفسي، الذي يؤدي بدوره إلى أضرار بالغة، ومثال ذلك: الأفكار الإنتحاريّة، والميل إلى القتل ، وجملة من المخارف المَرَضيَّه المعهودة عند هؤلاء المرضى.

ولكن كيف هو السبيل إلى بناء صورة واضحة، عن وجود

فكرة، هي بـالأصل مجهولـة مـن قبل المريض الذي يمليها، ولا يستطيع بالتالي أن يعبر عنها؟ هكذا يتساءل جانيه، وهو في معرض إجابته، يؤكد أهميّة الرجوع إلى العمليات التي تجري بموجبها الأفعال ماقبل الشعوريّة Subconscient ؛ فالمظاهر ما قبل الشعوريّة تتبدى بطرق مختلفة، وهي تمارس تأثيرها بالطريقة نفسها التي تحدث بالنسبة للأفكار القسريّة اللاشعورية.

ويمكن لهذه الأفكار التسلطيّة أن تظهر، بشكل واضح، عندما يتعرض الفرد لنوبة الهستيريا، التي تتجلى في سلوك معين وأحاديث ذات طبيعة خاصة. ويمكن للأفكار التسلطيّة هذه أن تتبدى أثناء الحلم الأقل والأكثر إثارة، وأثناء النعاس، أو في حالة السرنمه، حيث يعلن المريض عن أفكاره القسرية.

وتظهر هذه الأفكار أيضا أثناء التنويم المغناطيسي، حيث يلاحظ أن المريض عندما يستسلم لذاته يعبر بصوت مرتفع، ويستسلم لأفعال معينه، كما هو الحال في حالة النوم الطبيعيّة، فيكشف عن أفكاره ، وأحيانا يتواصل مع الآخرين، ويجيب عن أسئلتهم. هذا وتشير الملاحظة إلى أن الأشخاص المنومين يشرحون بوضوح الأفكار التي تتسلط على وجودهم، وهم يقدمون صورا واضحة قادرة على تحديد الحوادث التي أثرت في إيجاد هذه الأفكار القسرية.

فالتفكير ما قبلشعوري يمكن أن يظهر أثناء اليقظة عند المرضى ودون وعي منهم لذلك ، وهم يؤدون بعض الأفعالآليا في

حالة شرودهم وذلك يسمح لنا بأن ندرك أفكارهم ؛ ويبقى القول: إن الكتابة الآليّة هي الأكثر قدرة على تحديد هذه الأفكار، وذلك بالقياس إلى العمليات الأخرى.

وقد حاول جانيه إيجاد طريقة لعلاج الأفكار القسريّة بوسائل مختلفة: عندما كان يجد فكرة قسريّة كان يحللها إلى أجزائها، ثم يقوم بدراسة كل عنصر من عناصرها بطريقة متواصلة، ولكنه عندما كان يجد نفسه أمام حالة هستيريّة مشاهدة وغير قابلة للتحليل كان يلجأ إلى منهج إزاحة وتحويل الصورة التي يراها المريض في أحلامه. وهو يحدثنا في كتابه « *العصاب والأفكار القسريّة Nevrosess et Idées fixes* » أنه استطاع أن يزيح خوف مريضه من الجثث إلى اتجاه قوامه أن الجثث غير مخيفة أو ضارة، بعبارة أخرى جعل المريض يتخلص من فكرة أن الجثث تضر وتخيف.

والخلاصة التي يصل إليها جانيه هي: أن المظاهر اللاشعوريّة تأتي تعبيرا عن حالة ضعف نفسيّة، وهذا يعني أنه بسبب من حالة الضعف هذه فإن الأفكار التسلطيّة تتشكّل وتمارس مفعولها المؤذي مُشَكِّلةً بذلك مرضا لاشعوريا.

وأخيرا يمكن لمعالج الهستيريا أن يقوم بإجراءات عديدة منها: اكتشاف الأفكار التسلطيّة بواسطة التنويم المغناطيسي وإبعاد هذه الأفكار ونفيها من خلال إعادة التربيّة عن طريق الإقناع والإيحاء والإزاحة.

من جانيه إلى فرويد

يؤكد جانيه على أهميّة النشاط المتكامل للشعور، ويبيّن المحاور الأساسيّة والمتعددة للفعل اللاشعوري وذلك كنتاج لانخفاض قدرة الأنا وضعف طاقته. ومع ذلك يمكن أن نتساءل ما إذا كان اللاشعور يُفسر على نحو كلي وفقا لمبدأ الانحلال؟ ولاسيّما فيما يتعلق بالذاكرة اللاشعوريّة؟ ويمكن أن نتساءل أيضا إذا كانت الأعراض الهستيريّة قابلة للتفسير على ضوء الوهن النفسي ؟ وما إذا كان جانيه قد أعطى هذه الأعراض أهميّة الأفكار قبلشعوريّة؟

وهنا يجب أن نعطي فرويد، الذي انطلق من بعض المحاور الجانيّة نسبة إلى جانيه، أهميّة تجديد متكامل للمسألة، حيث استطاع أن يكشف عن جوانب أخرى لم تكن معروفة من قبل خاصه باللاشعور.

القسم الثاني

اللاشعور عند فرويد

اللاشعور والصراعات النفسية

الفصل الأول

لا يهدف عملنا، في القسم الثاني من هذا الكتاب، إلى استعراض الملامح الأساسيّة العامة لمدرسة التحليل النفسي، بل يتمحور حول الاكتشافات الفرويديّة في مجال الجانب اللاشعوري للشخصية. ويأتي استعراضنا لبعض التفاصيل الخاصة: بميلاد منهج التحليل النفسي، ونظريّة العصاب، وقضايا الجنس، والتطور الخاص ببعض جوانب النظريّة الفرويديّة، من أجل فهم أفضل، وأكثر عمقا، للعمليات اللاشعوريّة التي يتناولها المحلل النفسي الفييننّي، نسبه إلى فيينا مستطرأس فرويد.

ولابد لنا، في هذا السياق، من العمل على الفصل بين مفهوم اللاشعور، وبين بعض المفاهيم الفرويديّة المشاكلة لها، وذلك كله مع التأكيد على أهميّة الاكتشافات الفرويديّة، الخاصة باللاشعور الدينامي

Inconscient dynamique الذي تربطه علاقة قويّة مع مفهوم الكبْت Refoulment.

غالبا ما يطلق على مدرسة التحليل النفسي تسمية « علم نفس الأعماق Psychologie de Profonde »، وذلك لأن هذه النظريّة تبين لنا إلى أي حدّ تكون العمليات النفسيّة اللاشعوريّة، الضاربة وجودها في العمق الإنساني، والتي لاحظها فرويد منذ عام ١٨٨٠، مختلفة جدا عن ظاهرة الآليات النفسيّة التي نظرنا فيها حتى هذه اللحظة.

أولا. الأعمال الأولى:

من أجل فهم أفضل لنظريات فرويد، يترتب على الباحث أن ينظر في ملامح عبقريته، وهذا بدوره يتطلب منا العودة إلى أعماله الأولى [٧].

ولد فرويد في مورافيا Moravie عام ١٨٥٦، و اتسمت حياته المدرسيّة، كما يود أن يخبرنا، بتعطش كبير إلى المعرفة، حيث اندفع بحماس إلى دراسة العلاقات الإنسانيّة، والموضوعات الخاصة بالعلوم الطبيعيّة في الوقت نفسه.

---

[٧] انظر كتاب مارس روبير Marth Robert : *ثورة التحليل النفسي Le Révolution Psychanalatique 1964.*

انتسب فرويد إلى كليّة الطب في فيينا عام ١٨٧٣، وعمل بعد تخرجه معيدا في مخبر علم النفس في بروكه Bruke، ثم عمل بعدها طبيبا مقيما في أحد المشافي، فأتاح له ذلك فرصة التواصل مع عدد كبير من الاختصاصات الطبيّة المتعددة مع الاهتمام الخاص بفيزيولوجيا الدماغ والجملة العصبيّة ، حيث نشر، فيما بعد، ملاحظاته حول مختلف الحالات الخاصة بالأمراض العضويّة للجملة العصبية.

رحلاته إلى باريس ونانسي:

حصل فرويد على منحة دراسيّة عام ١٨٨٥، لمتابعة دراسته في مدرسة باريس L'ecole de paris، التي عرفت بشهرة علميّة واسعة؛ وتتلمذ على يد الطبيب النفسي المشهور شاركو Charcot، الذي أتاح له الفرصة لدراسة الحالات الهيستيريّة، وممارسة الإيحاء التنويمي الذي عرف به على نحو واسع في عصره.

عاد فرويد إلى فيينا عام ١٨٨٦، ثم بدأ بممارسة عمله طبيبا اختصاصيا بالأمراض العصبيّة، حيث كانت أساليبه العلاجيّة قائمة على أساس المعالجة بالتدريم المغناطيسي.

وفي صيف ١٨٨٩ عاد إلى نانسي وقضى فيها عدة اسابيع، وكان لهذه الاقامة القصيرة أهميّة كبيرة في تحديد مسار توجهاته العلميّة، حيث بدأ يوجه اهتمامه الكبير إلى ظاهرة الإيحاء وتأثيره فيما بعد

مرحلة التنويم المغناطيسي بالمنوَّم الذي ينفذ الأوامر التي تلقاها أثناء التنويم، جاهلا أسباب قيامه بالأفعال المطلوبة هذه. ومع ذلك فإن الفعل الذي يقوم به المنوَّم، كما يعتقد فرويد، يبدو واضح السبب بالنسبة للمنوِّم المجرب: فالفعل هو نتاج لسبب (أمر إيحائي سجل أثناء فترة التنويم) يقع في دائرة اللاشعور وليس في دائرة الشعور أو الجانب الواعي من الشخصيّة.

ويستخلص فرويد، انطلاقا من هذه الملاحظات، بأن الأسباب الحقيقيّة لأفعالنا ليست معروفة دائما وذلك مهما تبدت لنا واضحة عند الضرورة. ويؤكد فرويد بقوة على أهميّة هذه الملاحظات ومركزيتها داخل اكتشفاته حيث يقول في كتابه (*حياتي والتحليل النفسي Ma vie et (la psychologie*: "*لقد قدر لي، خلال إقامتي في نانسي، أن أدرك أهميّة العمليات النفسيّة المتخفيّة داخل وعي الناس*".

ملاحظات جوزيف بروير Joseph Breuer:

شكلت الملاحظات العلميّة، المتعلقه ببعض الحالات المَرَضيَّه التي سجلها جوزيف بروير، في الفترة الممتدة بين عامي ١٨٨٠ و١٨٨٢ ـ وهو أحد الأطباء المعروفين في فيينا ـ منطلق الحركة الفرويديّة، ولعبت دورا كبيرا في توجيه مسار مدرسة التحليل النفسي. تنطلق ملاحظات بروير هذه من حالة مريضة كانت تعاني من وضعيّة هستيريّة، والتي قدر لها أن تتماثل للشفاء عندما تذكرت، تحت تأثير

جلسات التنويم المغناطيسي، بعض الذكريات والحوادث الخاصة بعوامل مرضها؛ كانت المريضة فتاة شابة، تعاني من مختلف المظاهر الهيستيريّة، كالشلل الذهني والاختلاطات النفسيّة؛ ولاحظ بروير، عن طريق المصادفة، أنه يمكنه أن يحرر المريضة من بعض حالاتها المَرَضيَّه وعندما يتيح لها فرصة التعبير عما تشعر به. ولذلك بدأ يمارس عليها حالات التنويم المغاطيسي دافعا إياها إلى الحديث الذاتي. ولاحظ، في هذا السياق، أن الاضطرابات، حتى الجسديّة التي تعانيها المريضة، يمكنها أن تزول بتأثير التنفيس الذاتي. وأحيط فرويد علما بما آلت إليه تجارب بروير من قبل بروير نفسه، واستطاع أن يوظف هذا الاكتشاف الهام بطريقة عبقريّة. فهنالك كثير من المظاهر العصابيّة التي توجد في إطار علاقة مع أحداث منسيَّة، جرت في مسرح الحياة الماضيّة، وبالتالي فإن استذكار هذه الحوادث يؤدي إلى زوال الأعراض المرضية. فالعلاقة واضحة بين نسيان بعض الذكريات، وبين وجود بعض المظاهر المرضيّة. لم تستطع مريضة بروير في حالة اليقظة أن تتذكر كيف ظهرت أعراضها المَرَضيَّه، وهي لم تستطع أن تجد أيّة علاقة بين هذه المظاهر المَرَضيَّه وبين انطباعاتها الحياتيّة، ولكن التنويم المغناطيسي استطاع أن يكشف هذه العلاقة المتخفيَّة.

فالذكريات المستعادة تعود إلى خبرات الحياة الشخصيّة القديمة، ولا سيمّا في مرحلة الطفولة، وهذه الخبرات والأحداث كانت تؤثر بقوة على الفتاة. لقد أثارت هذه الذكريات القديمة جروحا نفسيّة عند

المريضة؛ وبالتالي فإن استعادة هذه الذكريات أدت إلى نتائج علاجيّة. ومن هذا المنطلق بدأ بروير وفرويد يعتمدان هذا المنهج العلاجي، ويطلقان عليه منهج التطهير النفسي Nottoyage de l'esprit. وعلى أثر ذلك نشر بروير وفرويد كتابهما المشترك في عام ١٨٩٣ وعنوانه: «*الآليّة النفسيّة للمظاهر الهستيريّة Du mécanisme des Phénomenes hysteriques*». فالمظاهر المختلفة للهستيريّة، كما يبيّن كتابهما هذا، ليست مظاهر ساذجة أوديبيّة للمرض، بل ترتبط وبقوة مع صدمة انفعالات مؤثرة، ويمكن تحديد هذه الصدمة من خلال التنويم المغناطسي ؛ ومن هذا المنطلق، يمكن للمرضى الذين يدركون الأحداث والصدمات المسببة لإضطراباتهم أن يتماثلوا للشفاء تدريجيا.

خلاصات أولى:

استطاع فرويد أن يكتشف، عبر تجارب بيرنهايم Bernheim، وجود سببيّة حقيقيّة للمظاهر المَرَضيَّه كامنة في الجانب اللاشعوري من الشخصيّة. وتأتي ، لاحقا، أعمال بروير Breuer واكتشافاته لتعزز هذه النتيجة: **فالمظاهر المَرَضيَّه الهيستيريّة ناجمة عن احداث سابقة منسيَّة تماما حتى لحظة البوح بها في جلسات التنويم المغناطيسي**. ومن هذا المنطلق يجب إيجاد الصلة بين العصاب، وبين الصدمات النفسيّة الأوليّه التي تظهر في التاريخ النفسي للفرد، فهذه الصدمات تؤثر على الفرد دون أن يدري شخصيا بوجودها، أي دون أن يكون واعيا لها،

ومن غير أن تدخل في دائرة وعيه أو ذاكرته الشعورية، فالفرد في هذه الحالات يسلك دون أن يدرك السبب الحقيقي لسلوكه: فالأمر الذي وجه إليه أثناء التنويم المغناطيسي في مثالنا السابق وفحواه: *الطلب من المنوَّم تناول المظله والتنزه بها في الممر*، هذا الأمر سجل في دائرة اللاشعور عند المريض، وبدأ يمارس إكراهاته فيما بعد انتهاء جلسة التنويم المغناطيسي ؛ علما بأن المريض لم يعرف مبررات سلوكه هذا، بل تملكه شعور بإكراه ، غامض الهويّة، يدفعه إلى السلوك وفقا لهذه الطريقة الغريبة إلى حدّ ما.

وانطلاقا من هذا المبدأ ووفقا لهذه المنهجيّة يدرس فرويد عصابا آخر مميزا هو: العصاب الوسواسي Névrose obsessionelle، حيث يعاني المصابون بهذا العصاب أفكارا تراودهم، ومع أنها غير هامة بالنسبة لهم، فإنها تدفعهم إلى سلوك يبدو لهم شاذا، ولا يلبي أيّة رغبة لديهم. **ومثال ذلك الشخص الذي يسير في الشارع وهو لا يستطيع أن يتجاوز أثناء سيره بعض أرقام البيانات، وهو عندما يحاول تجاوز هذه الأرقام يصاب بحالة من الدوار أو القلق.** يذكر فرويد ، في هذا الصدد، حالة سيدة تعاني من وسواس غريب إلى حدّ ما، ومفاده أن السيدة تتنقل من غرفتها إلى غرفة أخرى، ثم تأخذ مكانها أمام الطاولة في وسط الغرفة وتنادي وصيفتها، ثم ترسلها إلى غرفتها مرات عديدة.

درس فرويد هذا الشكل العصابي الوسواسي، ووصل إلى نتيجة مفادها: أنه لايمكن تفسير هذا العصاب دون الافتراض

بوجود عمليات لاشعوريّة مسؤولة عن صدور هذا النوع من السلوك القهري؛ فهذه التصورات والاندفاعات، المتدفقه من ينابيع مجهولة، تبدو للمريض نفسه وكأنها قوى كليّة القدرة آتيّة من عالم خارجي. **هذا العالم الخارجي، الذي يشكّل مصدر الاندفاعات السلوكيّة القسريّة، هو اللاشعور *Inconscient* كما يطنه فرويد بوضوح.**

ولا بد من إلى الإشارة، في هذا السياق، إلى النجاح الكبير الذي حققه منهج التطهير السيكولوجي، الذي يؤكد وجود علاقة جوهريّة بين الجانب اللاشعوري لحياة الفرد وبين المظاهر المَرَضيَّه. ولكن هذه المنهجيّة لا تفترض وجود علاقة واضحة بين اللاشعور وبين الإحساس بالمرض، بل تؤكد على الخاصة اللاشعوريّة أيضا للإحساس بالمرض الذي من غيره (الإحساس اللاشعوري) لا يمكن للأعراض المَرَضيَّه أن تظهر إلى حيِّز الوجود.

ويمكن ملاحظة تقارب كبير بين هذه الخلاصات التي يصل إليها فرويد، وبين نظريات جانيه Janet الذي يفسر الهستيريا من خلال الأفكار التسلطيّة ما قبلشعورية Subconscient، مع أن جانيه لم يستخلص أبدا وجود علاقة ضروريّة بين اللاشعور وبين الأعراض المرضية. ويضاف إلى ذلك أن جانيه، الذي لم يوظف هذا المنهج التطهيري الخالص من أجل إزالة هذه الأعراض، يوظف علاجا نشطا يتمثل في عمليّة الإزاحة كما لاحظنا ذلك من قبل ؛ وهو في هذا الصدد يشير في كتابه «*الآليّة النفسيّة* *Automatisme Psychologique*»

إلى حالة ماري التي شفيت عندما تذكرت أثناء تنويمها مغناطسيا بعض الذكريات القديمة الخاصة. ويمكن القول أيضا: إن جانيه لم يكن يشك أبدا في الأهميّة المركزيّة لجانب الحياة اللاشعوريّة، ولا سيّما بالنسبة لمرض الهستيريا، وذلك بوصفها مصدرا حتى للأعراض المَرَضيّه لهذا العصاب. وإذا كان مفهوم الفكرة التسلطيّة Idée fixe يأخذ أهميّة خاصة عند جانيه فإن فرويد يؤكد على مفهوم اللاشعور بالدرجة الأولى.

وإنه لمن الخطأ أن نربط بين اكتشافات فرويد وبين اكتشافات جانيه على الرغم من القرابة الأوليّة القائمة بين نوعيّة هذه الاكتشافات؛ وذلك لأن فرويد منذ عام ١٨٩٥ ـ تاريخ دراسته المشتركة مع بروير حول الهيستيريا ـ بدأ يأخذ خطا آخر غير هذا الذي نجده عند جانيه.

ثانيا . منهج التداعي والكبت

La Méthode associative et le Refoulement

انفصل فرويد عن صديقه بروير في عام ١٨٩٥، وانصرف لمتابعة ابحاثه منفردا حول الهيستيريا، والعصاب الوسواسي، والقلق وأمراض أخرى مختلفه. وتأكدت له، في أثناء عمله، أهميّة المنهج التطهيري، فالتنويم المغناطيسي قابل للتطبيق على بعض الأفراد دون الآخرين. لقد لاحظ، بالإضافة إلى ذلك، أن آثار العلاج بالتنويم المغناطيسي ليست

ثابتة، بل تحدث أحيانا انعكاسات عصابيّة وذلك بعد شفاء وهمي خادع. لقد بدت له طريقة التنويم مملة رتيبه، ولا سيّما بالنسبة للطبيب الذي يترتب عليه أن يكرر الخطوات نفسها في طقوس متجانسة، وذلك كله من أجل علاج المظاهر المَرَضيَّه المتنوعة جدا، وذلك دون أن يدرك الطبيب الدلالة الخاصة لهذه الاعراض. فالعمل في هذا السياق أشبه ما يكون بأعمال السحر والتعاويذ والشعوذة.

ومن هذا المنطلق، بدأ فرويد يبحث عن منهج آخر، أكثر مرونة وقدرة على معالجة مجال اللاشعور عند مرضاه، بدأ يبحث عن منهج يجعل مرضاه قادرين على ممارسة سلوك طبيعي بعيدا عن السلوك التنويمي واللاشعوري. وهنا يجد فرويد، ومن جديد، أهميّة خاصة لأعمال بيرنهايم ، حيث بدأ يجد فيها آفاقا أكثر اتساعا وشمولا: عندما ايقظ بيرنهايم مريضه، حامل المظلة، كان المريض قد نسي تماما ما حدث له أثناء التنويم المغناطيسي، وعندما أخطر المريض بما حدث له أثناء جلسة التنويم تحرر من قسريّة فكرة *حمل المظلة والتنزه بها*. وهنا يقرر فرويد أن يفعل الشيء نفسه، وأن يحاول وضع مرضاه بصورة الذكريات المؤلمة التي وقعت لهم ، وذلك عبر عمليات استدعائيّة طبيعيّة.

المنهج الاستدعائي: Methode Associative

تشكّل عمليّة تداعي الذكريات منهجا أساسيا يعتمد لإيقاظ الذكريات المدفونة منذ عهد بعيد، وتعرف هذه العمليّة بأنها الطريقة

التي يتم من خلالها استدعاء مجموعة من الصور والأفكار الجديده إلى ساحة الشعور عن طريق فكرة ما أو صورة ما. ويأخذ هذا المنهج الحركة التاليّة: يرمز إلى (أ) بوصفها حالة من الشعور التي تستدعي حالة (ب) وهي حالة شعوريّة أخرى مستدعاة، ثم يعمل (ب) كمحث جديد ويؤدي إلى (ت)، ويمكن لـ (ت) أن تكون حالة لاشعوريّة، وهكذا دواليك، وتلك هي صورة المخطط البسيط لعمليّة التداعي،حيث يمكن لهذا المخطط أن يكون أكثر تعقيدا في واقع الأمر، وذلك لأن حالة شعوريّة واحدة قد تؤدي إلى إنتاج حالات أخرى واستدعاء أفكار متعددة لاشعورية.

ومهما يكن الأمر فإن هذه العمليّة تسمح لنا بالتوغل داخل الذاكرة في مراميها البعيدة المدى وصولا إلى مرحلة الطفولة المبكرة جدا. وذلك لأن الصور والأفكارالمستدعاة تشكل ، في نهايّة الأمر، واحدا من مكونات الذاكرة الدفينه. وفي هذا الصدد، كتب موريس باردينMorice Pardine ، في *موسوعة علم النفس*،: "*بأن تداعي الأفكاريشكّل أداة أصيلة وضروريّة في عمل الذاكرة* ". ومهما تكن الصيغ المطروحة لاستدعاء الذكريات فإنه لا بد من وجود عمليّة وسيطة تؤكد حالة التداعي، وبالتالي فإن العلاقة بين الماضي وبين العمليّة الوسيطة هي ما نطلق عليه عادة *تداعي الأفكار Association d'idées* .

ويمكن لنا، من جهة أخرى، أن نميِّز في هذا السياق بين التداعي الإدراكي - الذي يؤدي إلى استدعاء ذكريات محددة، تقتضيها حالة

راهنة، وهي ذكريات ضروريّة بمقتضى الحاجة ـــ وبين التداعي التصوري الذي يعتمد على مبدأ التداعي الحر، الذي يتيح للفرد نوعا من الاستدعاء ات المتتابعة.

وفي هذا الخصوص يمكن القول: إن فرويد يعتمد على مبدأ التداعي الحر وذلك من أجل استدعاء الذكريات البعيدة عند مرضاه، وكان، حتى بدايّة هذه المرحلة، يستخدم التنويم المغناطيسي في هذه العمليات.

ويبدو أن منهج التداعي كان مناسبا لتحقيق الهدف التطهيري عند فرويد: ويتمثل هذا المنهج في أن نطلب من شخص ما، أن يفكر في أمر ما، أو صورة مهما يكن أمرها، وانطلاقا من هذه الفكرة أو الصورة يبدأ الشخص بحريّة كامله في استدعاء ما يشاء من أفكار وخواطر وصور أخرى. وتشير التجربة إلى أن الذكريات السحيقة ترتبط بروابط محددة مع حالة الوعي الحاضرة. ويمكن القول، بطريقة أخرى، إن الاستدعاءات تحدث انطلاقا من فكرة أساسيّة مركزية، وهي فكرة تبدو وكأنها فكرة بسيطة، أو فكرة تقوم على مبدأ الصدفة وذلك بالنسبة لساحة الشعور. وهذه الاستدعاءات ليست مجرد استدعاءات بسيطة، بل هي أكثر من ذلك بكثير. فهي أفكار تدخل في مجال الذكريات التي تشكّل الأساس المنطقي للفكرة الأساسيّة للتداعي الحر. كتب فرويد في هذا الصدد يقول في كتابه «*علم النفس التحليلي*»: "*أجريت عدة تجارب، تدور حول الاسماء والأرقام التي*

تم طرحها بالصدفة، حيث كان يتم استدعاء مجموعة من الذكريات حول اسم ما، حتى اللحظة التي تستنفذ فيها طاقة الفرد على الاستدعاء، وفي نهايّة كل تجربة، كانت هناك إمكانيّة واضحة لتحديد الأسباب الكامنة خلف هذه الاستدعاءات الخاصة بالذكريات حول الاسم المطروح وتفسيرها، وكان ذلك يمكّننا من إدراك أهميّة الاسم المطروح بالنسبة للشخص موضوع التجربة". فالتحليل السيكولوجي وفقا لهذه الطريقة يستطيع أن يضعنا بصورة الأسباب، والعلل الحقيقيّة، لبعض الأمراض التي نسعى إلى تحديد هويتها.

ويمتلك التداعي الحر ميّزتين هامتين فهو: يسمح للشخص الذي يستدعي أن يتوغل بعيدا داخل المجال الحيوي العميق لذكرياته، هذا من جهة ؛ ويتيح له، من جهة أخرى، أن يجد بين هذه الذكريات المدفونة أهميّة الفكرة أو الصورة التي تشكّل نقطة البدايّة في عمليّة التداعي. ويُفهم من ذلك ببساطة أن العصابي، الذي يتعرض لمجموعة من الأعراض المَرَضيَّه والأفكار الوسواسيه، يمكنه، وفقا لهذه المنهجيّة، أن يصل إلى عمق ذكرياته الدفينة، وهي الذكريات التي تسمح له، عندما تصبح في دائرة الشعور، أن يحصل على شفاء عاجل، وهي الحالة التي تحدث أثناء عمليّة التنويم المغناطيسي. ومن هذا المنطلق يقترح فرويد إيجاد العلاقة القائمة بين المسألة المطروحة وبين أشكال الصور والأفكار التي تتوالد عفويا عند المريض، وذلك من أجل الوصول، في لحظة ما، إلى الذكريات التي يبحث عنها المحلل

النفسي المعني.

ويمكن أن نستعرض، فيما يلي، صورة الحركة الواقعيّة الحيّة لمسألة التداعي: يطلب من المريض أن يأخذ وضعيّة الملاحظة الذاتية، وذلك بعيدا عن الخلفيّة الفكرية، وأن يضعنا في متناول إدراكاته الداخليّة، وذلك في مستوى أحاسيسه وأفكاره وذكرياته. ويكون المحلل أثناء ذلك مع المريض وذلك لكي لا يستسلم إلى اي دافع يمكنه أن يملي عليه خيارا آخر.

يطلب من المريض، في أثناء هذه التجربة، أن يبتعد دائما عن نقد ما يمكن له أن يجده من أفكار وذكريات. والمريض خلال الجلسة يكون عادة مستلقيا على أريكة في غرفة نصف مظلمة حيث يأخذ المحلل النفسي مكانه خلف المريض بطريقة لا يبدو فيها تحت وقع نظر المريض.

الكبْت Refoulement:

استطاع فرويد، بالإستناد إلى هذه المنهجيّة التحليليّة، أن يكوّن خبرات كبيره تساعده في مواجهة الصعوبات الكبيرة التي تعترضه وذلك عندما يبدأ المريض بالاعلان عن أفكاره وفقا لمبدأ التداعي الحر. فغالبا ما تكون البدايّة يسيره وذلك عندما يتحدث المريض بسهولة عن حلم، أو فكرة تراوده، أو عن الصور التي ترتسم على صفحات نفسه؛

ولكن يمكن للموقف أن يتغير عندما يبدأ المريض بانتهاك التعليمات المعطاة له، وعندما يبدأ باجراء عمليّة اصطفاء بين الافكار التي تراود مخيلته ؛ وفي هذا المستوى يحاول المريض جاهدا تغيير الموضوع الأساسي لحديثه، ويبدأ غضبه عندما ينبهه المحلل إلى القاعدة التي يجب عليه أن يراعيها، وقد يدخل في مناقشه حادة مع الطبيب. ويصف لنا فرويد هذه الحالة على الشكل التالي:" يزعم المريض، أحيانا، أنه لا يجد أيّة فكرة، أو ذكريات، أو أحاسيس ؛ وأحيانا، يزعم بوجود ركام هائل من هذه الذكريات إلى حدّ لا يستطيع فيه أن يحددها ويوجهها، ويمكن للمريض، في هذا المستوى، أن يبدأ بتوجيه نقد، أو اعتراض على هذه أو تلك من الأفكار، وهو يخادع نفسه، أثناء الاستراحات الطويلة التي تقطع عليه حديثه، وينتهي إلى القول بأنه يعرف أشياء لا يستطيع البوح بها، وأنه يخجل من ذكرها، ثم يستمر بأداء اعتراضات لامتناهيّة ؛ وفي الوقت نفسه، يبدأ سلوكه الخارجي بالتبدل، فهو يختلق كل الأعذار والمزاعم من أجل أن يتجنب الجلسات العلاجيّة ، وهو بالتالي يستفيد من كل الفرص الممكنة من أجل أن يتراخى ويبتعد عن الموضوع الأساسي، ولا سيّما عندما يتعلق الأمر بحادث ما يظهر عند أثناء الجلسه، وغالبا ما يكون الحادث يتعلق بمرض عضوي. وتتعلق هذه المقاومة بتنوع الحالات العصابيّة المدروسة التي تتراوح بين حالات عنيفة، وبين حالات ماكرة، وبين هذه التي تستدعي الشفقة.

وباختصـــار، يلاحـــظ فرويـــد وجـــود محـــاور حساســـة للإستدعاءات والترابطـات، وذلك من غير أن تكون هذه الاستدعاءات واضحة فـي مضامينهـا، وغالبا مـا تنطوي هذه الإستدعاءات علـى عناصر مؤلمـة، حيث يجد المريض صعوبـــة كبـيرة فـــي قبولهـا، وصعوبـة أكبر عندمـا يريـد أن يضـع الطبيـب بصورتهـا، فهنـاك قـوة تعـارض عمليّة اكتشاف بعض الذكريات ؛ وتوجد مثل هـذه الذكريـات، غالبا، خـارج دائـرة الشعور، وتواجـه ردود فعل تستبعدها علـى نحـو غريزي. وهنـا يشـير فرويـد إلـىالصورة المكبوتـه لهـذه الذكريـات، فالأنـا Le Moi يناهض ظهور هذه الذكريات في ساحة الشعور، ويتم ذلك بوساطة عمليّة دفاع نفسيّة تظهر في هذا المستوى، وانطلاقا من هذه الفكرة الذكريـات المكبوتـه التـي تمتنـع عـن الظهـور فـي دائـرة الـوعي يجد فرويد مفتاح نظريته.

ويتضـح أن مهمـــة الطبيـب تكـون فـي إزالـة المقاومـة بالدرجـة الأولى، كمنطلق لتحقيق التطهير نفســي، فـالمنهج العلاجـي، فـي صورتـه هذه يجب أن يتوازن مع التداعي الحر من جهة، وأن ينـاضل لإزالـة المقاومة التي يبديها المريـض من جهـة أخـرى. ويطلـق فرويـد بالتالي على هذه العمليّة تسميّة التحليل النفسيPsychanalyse .

وقبـل أن نعـود لاحقـا لدراسـة الملاحظـات العلاجيّـة التحليليّـة يتوجب علينا وبشكل مسبق أن نتابع الملاحظـات والنتـائج التـي يسـجلها فرويد حول مفهوم الكَبْت.

ثالثا . أعراض مرضيّة وصراعات
Symptomes et Conflits

عندما امتلك فرويد ناصيّة فكرة الكَبْت انطلق منها لبناء تفسير فوري وجديد لمسألة العصاب، وذلك بالإستناد أيضا إلى الخصوصيّة التي يتميز بها اللاشعور. وفي هذا المسنوى يرى فرويد، وعلى نحو منطقي، أنه يمكن أن نعزي للكَبْت أمرين أساسيين:

أولهما: أنه قائم خلف المقاومة التي يبديها المريض، وأنه يوجد في أصل بنيّة المرض النفسي عينه ، فالقوى التي تناهض تغيرات الحالة المرَضيَّه هي نفسها التي أثارت، في لحظات سابقة، هذه الحالة وأدت إلى وجودها.

ثانيا: يعمل الكبْت على استبعاد الذكريات والخبرات المؤلمة التي جرت أحداثها في مرحلة ماضيّة، ويدفعها إلى ساحة اللاشعور، وهذا يعني بأن اللاشعور يتشكّل وفقا لعمليات الكَبْت المتعاقبة.

الصراعات العصابية: Les Conflits névrotiques

يترتب علينا، في هذا السياق، أن نكوّن صورة ديناميّة للأمراض العصابيّة، التي تخفي وراءها لعبة قوى متعارضة، في لحظة ما من لحظات تطور الشخصيّة، حيث يتجلى هذا الصراع في صورة أعراض مرضية.

يعود العصاب، كما يعتقد فرويد، إلى صراع بين قوى نفسيّة ديناميّة متناقضة، حيث يتمكن بعضها من إقصاء بعضها الآخر عن ساحة الشعور. ويحدث هذا الصراع في لحظات محددة وخاصة من تاريخ تطور الفرد، حيث تسجل هذه اللحظات غيابها في ساحة الوعي. فهناك بعض العناصر النفسيّة التي تسعى إلى أن تتحقق بصورة أفعال أو بصورة تصورات واعية، ولكن بعض هذه العناصر غير متوافق ومتعارض مع العناصر الكائنه في ساحة الشعور حيث تعمل هذه الأخيره على إقصاء العناصر الأولى إلى مدافن العمق اللاشعوري.

الأعراض المَرَضيَّه Les symptomes:

كيف يمكن تفسير وجود الاعراض المَرَضيَّه للعصاب في إطار هذه الشروط؟ فالأعراض المرضيّة ناشئة عن عمليّة صراع نفسيّة تتصف بالديمومة. ويبدو أحيانا أن بعض العناصر المكبوتة لا تشكّل أيّة مضايقة بالنسبة للشعور وذلك لأن هذه العناصر تعاني من حالة تفكك. ولكن كيف يمكن تحقيق المصالحة بين هذه العناصر المتنافرة وكيف يمكن أن نضفي عليها طابع الشرعيّة؟ يصالح فرويد بين هذه العناصر بافتراضه أنه عندما يتحقق الكَبْت فإنه يستمر في الوجود بطريقة آليّة ودون أن يتوقف، وهو يستمر، وفقا لمبدأ هدر الطاقة النفسيّة، على مدى الحياة. وبالتالي فإن العناصر المكبوتة لا تبقى ساكنة أبدا، بل تحاول أن تنظم نفسها داخل مجال اللاشعور.

وتشكّل هذه العناصر في النهايّة مجموعة من القوى النفسيّة التي تسعى إلى ساحة الوعي وذلك في اتجاهات غير معروفة أو معهودة. **وباختصار تحدث في ظلمات اللاشعور محاولة دائمة لاتنقطع يحاول فيها المكبوت أن يقتحم بوابات الوعي وأن يقارع القوى الكابتة.** وبالتالي فإن التوازن الشعوري لا يحظى دائما بالاستقرار الدائم، إذ يمكن أن يتعرض للخلل في أي وقت من الأوقات بتأثير الإندفاعات اللاشعوريّة.

فبعض العوامل، التي قد تكون نفسيّة أو جسديّة، تؤدي إلى تعزيز القوى المكبوتة، وإضعاف طاقة الكَبْت، وهذا يحدث اهتزازا في عمليّة التوازن ويؤدي إلى ظهور المكبوت. ولكن الحاجز لا يسقط نهائيا في أغلب الأوقات.

فالعصاب نتاج عمليّة صراع بين قوى لم يحسم بعد بصورة نهائيّة، حيث تستيقظ العناصر المهزومة (المكبوت) وتحاول من جديد أن تأخذ مكانها بصورة دائمة في داخل ساحة اللاشعور. فالعصاب أشبه ما يكون بحرب أهليّة داخل النفس، نسعى فيها الأكثريّة إلى أن تفرض نفسها بالقوة ولكن الأقليّة المضطهدة ترفض الإذعان والخضوع . فالأمراض العصابية مثل الوسواس والهستيريا والقلق والفوبيا (المخاوف المرَضيّه) تعبر عن حالة اقتحام جزئيّة يقوم بها اللاشعور ضد الشعور. ويمكن لنا في هذا الصدد أن نستعرض مثالا مستمدا من أعمال المحلل

النفسي الإنكليزي جونيس Jones[٨]:

يفترض جونيس أن رجلا ما يمكن أن يعاني من شعور غريب نحو واحد من أصدقائه أو أقربائه، كأن يتملكه شعور قوامه: رغبة بموت صديق أو قريب بحادث ما. وللخروج من هذه المأزقيّة الشعوريّة يمكن للشخص المعني أن يواجه هذا الشعور وأن يرفضه كليا، ثم يعمل على إزالته، حيث لا يفكر أبدا بعد ذلك بالمسألة بعد أن يكون قد رفضها على نحو واع هذا من جهة. ومن جهة ثانيّة، يمكن للفرد نفسه أن ينظر إلى هذا الإحساس بوصفه خطيئة، وهو من هذا المنطلق لايمكنه أبدا أن يعترف بوجود مثل هذا الشعور حتى بينه وبين نفسه، وفي كل مرة تقترب فيها هذه الفكرة من ساحة وعيه يتجاهلها آليا ويكبتها، وهذا يعني أنه لايستطيع قبول هذه الفكرة في نسق شخصيته. ومع ذلك يبقى الشخص نفسه يعاني من هذه الرغبة ويستمر يعاني في دائرة لاشعوره من آثارها ؛ وعند اللزوم فإن هذه الرغبة تقتحم مجال الشعور، وتؤدي إلى ولادة أفكار تسلطيّة، وأخرى وسواسيّة غريبة، والمريض في هذه الوضعيّة يجهل كليا السبب الذي يكمن وراء هذه الأفكاروالوساوس.

يمكّننا مثال جونيس من فهم أعمق لمفهوم الكبت: حيث لا توجد هناك علاقة بين الكَبْت وبين العمليات العقليّة الواعيّة، فالكَبْت

---

(٨) E. Jones: *Traité théorique et pratique de Psycholojgie* , .P.u.f. Paris.

يحدث آليا ويدفع إلى ساحة اللاشعور مجموعة من الرغبات والأفكار. وانطلاقا من هذه الفكرة يمكن القول - وعلى خلاف المعنى الساذج الذي يعطي لمفهوم *الكبْت* - إنه لايتم كبْت فكرة أو رغبة لأنها غير جيدة، أو لأن هذه الفكرة أو الرغبة تحقق اشباعا، أو لأن المرء لا يريد أن يفكر بالأحداث المزعجة، فالكبْت ببساطه يمنع الرغبة من أن تأخذ مكانها في ساحة الشعور. فالرغبة المكبوتة هي رغبة مجهولة بوصفه رغبة في دائرة الشعور: وذلك هو الطرح الذي نجده مناسبا لما يطلق عليه التحليل النفسي الكبْت Refoulement.

مقارنة مع نظريّة جانيه:

يلاحظ، حتى هنا، إلى أي حدّ يبتعد فيه فرويد عن تصورات بيير جانيه، وكأن قطيعة إبيستيمولوجيّة تحدث بين المرحلتين. فالعصاب بالنسبة لجانيه هو تعبير عن حالة ضعف وقصور وخروج بعض العناصر النفسيّة من دائرة النشاط التكاملي الخاص بالوعي. لكن فرويد، وعلى خلاف ذلك وفي ضوء مفهومه المركزي للكبْت، يؤكد على أهميّة الديناميّة والصراع بين نزعات نفسيّة متضاربة. يقول فرويد: "*إن الهيستيري بالنسبة لجانيه شخص ضعيف، ولأنه ضعيف لا يستطيع توحيد نشاطاته النفسيّة، ولذلك فإنه يتعرض لعمليّة التفكك النفسيّة، ويتعرض إلى حصار تفرضه ساحة الوعي. ولكن وعلى خلاف ذلك فإن المظاهر المَرَضيّه نتاج لعمليّة صراع نفسيّة نجد أصولها في عمليّة الكبْت القائمة*".

رابعا . الأحلام - رسائل اللاشعور:

استطاع فرويد، انطلاقا من التفسير الأولي للمظاهر العصبيّة المستند إلى مفهوم الكبت، أن يرسم رؤيّة شموليّة تجاوزت حدود الظواهر المَرَضيّه لتغطي بذلك الحالات النفسيّة الطبيعيّة. وقد أتاحت له هذه الرؤيّة الجديدة، بطابعها الشمولي، أن يتجاوز حدود علم النفس المرضي لينتقل إلى مستوى علم النفس الطبيعي، ويتضح ذلك في جوانب نظريته الخاصة بتفسير الأحلام. لقد لاحظ فرويد أن مرضاه يميلون، أثناء جلسات العلاج، إلى وصف أحلامهم، ولاحظ أن هذه الأحلام توجد في علاقة بيّنه مع الصراعات والمظاهر النفسيّة المَرَضيّه للمريض. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو:

ألا يمكن أن تكون الأحلام أيضا انعكاسات لعالم اللاشعور؟ وبالتالي ألا يمكن القول بأنه يوجد لدى الشخص الطبيعي مظاهر نفسيّة مكبوتة تترجم في أحلامه؟

وسرعان ما يعطي فرويد للأحلام دلالة فهي رسائل لاشعوريّة تسعى إلى أن تجد تفسيرا لها.

وبناء على هذه الفكرة ظهر كتاب فرويد « *تفسير الأحلام* في *عام ١٨٩٩* Interprétation des rêves » حيث يؤكد فيه على أهميّة الأحلام وعلى بنيتها اللاشعوريّة. وينطوي الكتاب على هذه العبارة الطموحة وهي "***تفسير الأحلام هو الطريق الأفضل الذي يمكننا من***

معرفة اللاشعور". [٩]

وسنعمل باختصار شديد في الصفحات اللاحقة على دراسة تصورات فرويد حول طبيعة الأحلام. وفي البدايّة سنحدد بعض الأفكار الخاصة بالمسألة، التي كانت تهيمن في ذلك العصر.

نظريات الأحلام قبل فرويد:

اتجه فرويد بعد إجراء دراساته حول العصاب إلى دراسة الأحلام، وفي هذا المقام يمكن الإشارة إلى فكرتين أساسيتين وجهتا رؤيته في هذا الخصوص:

أولا: الأحلام في هذه الصيغة إعادة انتاج أحداث الحياة اليقظة وهي تستجيب لاهتماماتنا الحاليّة. ولكن هذه الفكرة غير كافيّة، وإذا كانت صحيحة بالنسبة لبعض الأحلام فإن أكثر هذه الأحلام يخرج عن دائرة هذا التفسير، فالنوم كما يبدو يحملنا إلى عالم غريب تدهشنا أفكاره وصوره التي تفتقر إلى أي تماسك أو ترابط منطقي وذلك في إطار الحلم الواحد نفسه. ويمكن وفقا لهذه الرؤيّة أن تصنف الأحلام إلى ثلاثة فئات: أحلام ذكيّة وحساسة وهي الأحلام الأكثر ندرة ؛ ثم الأحلام المتكاملة التي تحمل دلالة ما وتتطوي في مضامينها على نوع

---

(٩) Freud.S; *Interprétation des rêves*, Tradition Meyerson et Berger, P.U.F. Paris, 1967

من الغرابة، التي تجعلها غير متوافقة مع حالة اليقظة؛ وأخيرا الأحلام التي تتكون من عمليات عقليّة غير متماسكة وقد تخلو من أي معنى وتبدو وكأنها قد صدرت عن عالم غريب عنا، وهي الأحلام الأكثر تواترا وشيوعا.

ثانيا: وهنا يمكن الإشارة إلى بعض التفسيرات التي تؤكد على أهميّة التفسير الفيزيولوجي للأحلام، فالنوم يعني إهمال العالم الخارجي، ولكن النوم نفسه لايقطع الصلة نهائيا بالعالم الخارجي. فالأحلام تثير فينا أشياء كثيرة ومن كل نوع. ومن أجل أن يكون هناك حلم لا بد من توافر أحاسيس ليليّة ما تشكّل منطلق الحلم، وتؤدي إلى إثارة الذكريات، فالشمعة المضاءة التي توضع أمام عيني النائم تجعله يحلم بأن هناك حريقا.

ولا يتجاهل فرويد أهميّة هذه التفسيرات بل يعتقد بأنها غير كافية. فالتفسير الفيزيولوجي للحلم لا يفسر لنا بدقة مضمونه. فالظاهرة النفسيّة يجب أن تفسر من منظور سيكولوجي.

فالأعراض المَرَضيَّه العصابيّة لها تاريخها النفسي الخاص بها. وإذا كان الأمر كذلك لم لا يكون للأحلام تاريخها الخاص أيضا على المستوى النفسي؟ وإذا كانت بعض الذكريات، وليس جميعها، تأخذ حضورها بتأثير عوامل حسيّة خارجيّة فإن هذه الذكريات لا تنفصل عن نسقها السيكولوجي.

يصف أحد المحللين ثلاثة أشكال من الأحلام المختلفة الناجمة

عن رنين منبه الصباح؛ في المرة الأولى: شاهد المحلل نفسه في الحلم عائدا من إحدى الكنائس حيث يصعد قارع الأجراس يصعد ناقوس الكنيسة ويدقه. وفي الحلم الثاني: كان في الشتاء حيث كان يسير على زلاجة تصدر رنينا وتجلجل؛ و في الحلم الأخير: يشاهد عاملة المطبخ تأتي إلى صالة الطعام وعلى الرغم من تحذيراته لها تركت الصحون تسقط على الأرض. يسجل فرويد ملاحظاته حول هذه المسألة: الحالم لا يدرك منبه الإيقاظ، وهذا لا يشكّل عنصرا من عناصر تفسير الحلم، فهو يستبدل الضجة التي يصدرها المنبه بضجة أخرى، وهو يفسر في كل مرة الحدث بطريقة مختلفة لماذا؟ يقال إنما يحدث في هذه الحالات يحدث بحكم المصادفة الاعتباطية. ولكن تفسير الحلم على نحو موضوعي يقتضي منا أن نعرف لماذا يختار الحلم هذا الصوت دون الأصوات الأخرى وذلك ضروري من أجل أن نفهم الإثارة الحلميّة التي يسببها المنبه.

محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن:

يتطلب إدراك الحلم معرفة بدلالته، وذلك بالطريقة نفسها التي ندرك فيها أعراض العصاب. ويعني ذلك أن الطريقة التي ساعدت على استجلاء وضعيّة الأعراض العصابيّة تشكّل منطلق إدراك الأحلام. وعلى الرغم من هذه التفسيرات السابقة فإن فرويد ينظر إلى الأحلام بوصفها نتائج لعمليات ذهنيّة متخفيّة. لماذا يكون هناك وفي الحالة

الخاصة بالحلم نوعا من القطعيّة النفسيّة؟ لماذا لا يستطيع عالم النفس عندما يوظف منهج التداعي من الكشف عن أصول الحلم وأسبابه؟

ألا يمكن لنا حقا أن نكتشف أسباب الحلم؟ يقول فرويد: "*إن منهجنا ينطلق من مبدأ أن نترك للتداعيات حريّة الإنطلاق، وأن نعمل على إخراج معلومات خاصة بعناصر الحلم، التي يمكنها أن تساعدنا على إدراك المضمون اللاشعوري للحلم*".

تبين لنا هذه الملاحظات أنه لم يكن لدى فرويد اتجاه نحو بناء طريقة جديدة، أوبناء مفتاح جديد لتفسير الأحلام، ولكنه كان يعمل فحسب على تطبيق المناهج التحليليّة على الأحلام، وهي المناهج التي حققت نجاحا ملموسا في مجال الأعراض العصابية. فمن أجل تفسير حلم ما، فإن الشيء الأول الذي يجب أن نقوم به يكون في إيجاد العلاقة بين الحالم وبين موضوع الحلم. ومما لا شك فيه أننا نشاهد رموزا كثيرة داخل الحياة الحالمة. ولكن هذه الرمزية، التي تتبدى كنتاج لتجربة التحليل ومن خلال المعالجة وفقا لمبدأ التداعي، لا يمكنها أن تؤدي إلى تفسير مؤكد يرتبط عمليا بهذه التقنيّة نفسها.

ويمكن لنا أن نستعرض مثالا بسيطا لهذه المنهجيّة ولهذه النتائج، وهو مثال مستعار من فرانك Frank [١٠]: جاءت إحدى صديقاته لزيارته وروت له أنها شاهدت حلما مفاده أنها خنقت كلبا

---

[١٠] Cité par Dalbiez, *La méthode psychanalytique et la doctrine freudienne*, Desclée de brouwer.

صغيرا أبيض، وقد عبرت عن دهشتها من هذا الحلم، وطلبت منه تفسيرا لذلك. ومن منطلق ارتباط المسألة بقتل الحيوانات قالت السيدة بأنها تحب كثيرا أن تعالج أمور المطبخ وهي مقاده بحكم عملها هذا أحيانا إلى ذبح الدجاج والأرانب، ومع ذلك فهي لا تحب هذا العمل وتؤديه بسرعة خاطفة ما أمكن لها ذلك. وقد بيّنت السيدة أنها خنقت الكلب، أثناء الحلم، بالطريقة نفسها التي تخنق فيها الطيور والأرانب في المطبخ. وانطلاقا من هذه الملاحظات، التي أدت إلى إدراك لجوهر القضيّة ، سأل فرانك السيدة ما إذا كانت تشعر بالحقد تجاه شخص ما؟ وعندها أشارت السيدة إلى سلفتها التي تحاول أن تضعها في حالة خلاف مع زوجها، وقد حدث أن نشب خلاف بينهما، منذ عدة أيام سابقة، إلى حدّ أن السيدة طردت سلفتها وأغلقت الباب في وجهها قائلة لها: اخرجي من هنا لا أريد في بيتي كلبا يعضني.

وبعد ذلك وعلى أثر هذه المعطيات تظهر معالم تفسير هذا الحلم. فالحلم يحدث آليا وذلك من خلال صورة متخيلة لسلوك عدواني. ولكن هذه العدوانيّة تتمحور حول موضوع ليس له علاقة حقيقيّة بالمسألة: الكلب الأبيض.

ومن أجل تفسير وجهي الحلم الوجه الظاهري والوجه الدلالي، يميز فرويد بين ما يظهر، وبين الأفكار الأساسيّة الكامنة. وبعبارة أخرى بين المحتوى المعلن، وبين المحتوى الكامن ؛ ففي المثال السابق يشير فعل خنق الكلب إلى الشكل المعلن، ولكن الرغبة في

الإنتقام الموجهه ضد السلفة تشكّل الفكرة الأساسيّة المضمرة، فالمحتوى المعلن يمثل المضمون المستقر، ويأخذ مكانه في سياقه التعبيري.

وبصورة أكثر عيانيّة، يرى فرويد أن الرغبات اللاشعورية، التي تختمر داخل العمق النفسي، وذلك مع ما يواكبها من انفعالات وذكريات، تشكّل المضمون الخفي للحلم. وهو من جهة ثانيّة يعتقد بأن الهشاشة الظاهريّة، والغرابة التي تتميز بها الأحلام، تجد تفسيرا لها من خلال الوظيفة الاساسيّة المشابهة لهذه المظاهر المَرَضيَّه للعصاب أي أنها تشكّل اتفاقات أو اندفاعات لاشعوريّة داخل الشعور.

الحلم والرغبة:

يجري الاتفاق على أن حلم اليقظة يهدف دائما إلى تحقيق رغبة ما قد تكون خياليّة وذلك ينسحب على الحلم. ويتضح من خلال التحليل ومنهج التداعي بأن الحلم يشكّل محرك رغبة تتوغل في عمق البنيّة النفسيّة للفرد. وتبدو أحلام الأطفال بالغة الوضوح في هذا المسار فهي تحقيق عفوي للرغبات والميول اليوميّة التي لم تحقق إشباعا كاملا؛ وهي في هذا السياق لا تعبر عن تشوهات العلاقة بين المضمون المعلن وبين المضمون الكامن، ويمكن القول في هذا الخصوص أن هناك تكاملا وانسجاما بين المضمونين في هذه الحالة.

يلجأ فرويد إلى أحلام الطفولة هذه ليوظفها كأمثلة حيّة في

بناءاته النفسيّة لوظيفة الحلم: طُلب من الطفل هارتمان أن يقدم سلة مليئة بالكرز إلى شخص آخر على أن يُكافأ بالحصول على بعض حبات الكرز لقيامه بالعمل. وفي اليوم التالي حَلُم الطفل هارمان بأنه قد التهم جميع الكرزات الموجودة في السلة. فمثل هذه الأحلام الطفليّة تأتي كرد فعل على أحداث تجري في إطار الحياة اليوميّة التي تترك عند الطفل احساسا بالأسى والندم والحزن وتترك لديه رغبات غير مشبعة. والحلم يمكن الطفل من تحقيق غير مباشر لرغباته وذلك عن طريق تحويل الفكرة إلى حدث مباشر بطريقة التحليل.

ويلاحظ أن بعض أحلام الراشدين تتشكّل وفقا لنماذج الأحلام الطفليّة، وهي أحلام تنتمي إلى الفئة الأولى المذكورة سابقا. وفي هذا المجال يلاحظ أن كتاب الروايات والمغامرات يرسمون أحلام ابطالهم، الذين يسقطون جائعين في اماكن موحشة، بطريقة بارعة. فالمساجين يحلمون بالحريّة، وعندما تكون لدينا مشاريع تأخذ بمجامع القلب فإننا غالبا ما نحلم بأن هذه المشاريع قد تحققت قبل الأوان. وهناك أمثلة لا حصر لها تصور لنا طبيعة هذه الأحلام.

كَبْت الأحلام:

لا توجد هذه البساطة في صور الحلم في أغلب أحلام الراشدين. إن تحقق الرغبات بطريقة وهميّة، وغياب التكامل وحضور طابع الغرابة داخل هذه الأحلام تشير إلى أن هذه الأحلام تعبر عن العمق السحيق للنفس الإنسانيّة، وما يحدث هنا أيضا شبيه بما يحدث في

حالة الأعراض العصابيّة. فالرغبات المدفونة في العمق اللاشعوري غير متوافقة مع حالة الوعي، وهذا يعني أن الأحلام في أكثرها رسائل نابعة من عالم اللاشعور.

ولم تكن المقارنة بين الأحلام وبين الأعراض المَرَضيّه للعصاب وحدها التي قادت فرويد إلى هذه النتيجة. لقد قاد التحليل المباشر للأحلام الخاصة بأناس عاديين إلى إفراز مفاهيم اساسيّة مثل المقاومة والكَبْت. فالشخص الطبيعي الذي يطلب منه أن يؤدي عمليّة التداعي الحر بخصوص واحد من أحلامه لا يستطيع في لحظة ما أن يعلن لنفسه أو للآخرين عن بعض تداعياته.

فهناك ما يسمى بالمراقبة التي تمنع الشخص من إدراك حلمه وهناك نوع من الكَبْت الذي يتحرك داخل الحلم نفسه، ويمكن الإشارة إلى ما يسمى يسمى بكَبْت الحلم وهو جانب خاص لنزعة أخلاقيّة معنيّه بإجراء الكَبْت على نحو طبيعي.

فالعناصر اللاشعوريّة المكبوتة نفسيا يجب ألا تصل إلى ساحة الشعور في أيّة صيغة كانت، وهذا يحدث بالتأكيد في حالة الأعراض العصابيّة، ولكن هذه الأعراض تتوافق مع تحولات غير طبيعيّة، أو بالأحرى مع تحولات غير شائعة داخل البنيّة النفسيّة، وذلك لأنه ، وتحت تأثير أسباب عديدة خاصة بالصراعات، يحدث خلل في التوازن الطبيعي؟ فهناك آثار جانبيّة ناجمة عن المكبوت، كما يقول فرويد، قادرة على التوغل داخل ساحة الشعور عبر الحلم. وتلك نتيجة طبيعيّة

ومنطقيّة للنوم: أثناء النوم تتراخى المراقبة، وتنخفض طاقة الأنا والقوة النفسيّة التي تحافظ على وضعيّة المكبوت العادية. وفي هذه اللحظات تنتهز الطموحات اللاشعوريّة الفرصة أثناء النوم،وتقتحم ساحة الشعور، ولكن قوة الكَبْت التي تسجل ضعفا كبيرا تبقى مع ذلك موجودة بحدود لتمارس بعضا من عملها وفعالياتها.

وبالتالي فإن رقابة الحلم هي جزء من القوى الكابتة، فهي تمنع الرغبات اللاشعوريّة من الظهور بصفة مباشرة. ويعتقد فرويد أنه وبسبب الرقابة الحلميّة فإن التفكير الحلمي الكامن يتوجب عليه أن يؤكد على بعض التغيرات والتعديلات، هذه التي تجعل الحلم غير مدرك في دلالاته الحقيقيّة، لأن دلالة الحلم وبسبب هذه الرقابة لا تتبدى بصفة مباشرة.

وهنا تكمن التفسيرات الخاصة بتشوهات الحلم. فالعناصر الأساسيّة للحلم في صيغته الخام تأخذ صيغا تحويليّة أكثر براءة تسمح لها بالتحقق والوصول إلى ساحة الشعور. لقد تحدثنا، في مثالنا السابق، عن السيدة التي حلمت بقتل الكلب الصغير الأبيض، ولاحظنا كيف اكتشف المحلل وجود اندفاعات اجراميّة عند السيدة ضد سلفتها، وهي اندفاعات مرفوضة من قبل الحالمه، ولكن هذه النزعة إلى القتل تتخفّى في ثياب الحلم، وذلك بدلا من الظهور بطريقة مباشرة: فالكلب الصغير يلعب دور الضحيّة، إذ يصعب جدا أن تكون الضحيّة المنشودة السلفة نفسها. فمن أجل إعادة بناء المادة الحلميّة استطاع

المضمون الكامن أن يخرج إلى ساحة الوجود في صورة رمزيّة حلميّة متخفيّة وبطريقة مجهولة من قبل الشعور نفسه. **فإدراك العلاقة الدقيقة المتخفيّة بين المضمون الظاهر وبين المضمون الكامن يشكّل المنطلق الأساسي لإدراك وتفهم النظريّة الفرويديّة الخاصة بالحلم.**

يرفض بعض الأشخاص قطعيا أن تفسر أحلامهم وفقا لهذه المنهجيّة، ويرفض بقوة أن تكون أحلامه صورة لرغبات لاشعوريّة في موت بعض الأصدقاء والأحبة ! لقد كتبت إحدى المريضات إلى فرويد قائلة: " **أتجسر حقا على القول بأنني أريد الموت لزوجي ! إن في هذا بلاشة واضحة ! لقد كوّنا أسرة متكاملة منذ أمد بعيد، وبالتالي فإن موته يحرمني من كل ما أملكه في هذه الدنيا**". ويقول مريض آخر " **كيف تستطيع أن تقول إنني آسفة على انفاق مبلغ كرسته لأخواتي ومن أجل تربيّة أخي؟ إن هذا مستحيل! فأنا لم أعمل أبدا إلا من أجل عائلتي، ولاتوجد لي أيّة غايّة أخرى في الحياة غير إنجاز واجبي من أجل أسرتي**".

هذه الاعتراضات مشروعة إلى حدّ كبير ولا سيّما في المستوى الشعوري من التفكير، فهي صحيحة من وجهة نظر لاشعوريّة، وخاطئة إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضعيّة الشعورية. وهنا يمكن أن نلاحظ المشقة الكبيرة التي يتجشمها فرويد عندما يريد أن يتحدث عن دلالة حلم ومغزاه، أي عندما يريد أن يدخل في مجاهل المضامين الكامنة والخفية.

فهناك نزعات لاشعوريّة في الحلم، والحالم له كل الحق في أن

مع ذلك لا يحق له ان يعارض إمكانيّة الوجود اللاشعوري لهذه النزعات. يعرف فرويد في النهايّة الحلم بأنه: " **هو تحقق مُقَنّع لرغبة مكبوتة وهو لا يعدو في النهايّة عن كونه تنفيذا لرغبة معينه** ".

مواد الحلم:

تشكّل النزعات اللاشعوريّة الينابيع الأساسيّة لصورة الأحلام، ويمكن الإشارة إلى مصادر أخرى. لقد عرفنا سابقا أنه يمكن الاستفادة من الاستثارات الخارجيّة والداخليّة في توظيفات الحلم. ولكن فرويد يركز في هذا المجال على أهميّة العناصر قبلشعوريّة هذه التي توجد في الذاكرة القريبة وفي الاهتمامات التي تشكّل المواد الأساسيّة للحلم.

وغني عن البيان أن المضمون الظاهري يعتمد على احداث جديدة ومشاريع حديثة واعيّة، فأكثريّة الأحلام تشتمل على عمليات ذهنيّة تدور أحداثها في ماض قريب. ويطلق فرويد على هذه العمليات بقايا أحداث اليوم. هذا ويمكن لعمليات الاصطفاء الخاصة بالذكريات أن تتدخل في عمليّة صياغة الحلم، وهي بالتالي يمكنها المساهمة في تحليل دلالاته العميقة. وعندما يقع الخيار على مجموعة ذكريات، فإن ذلك يتم على ضوء القرابة التي تشد هذه الذكريات إلى العناصر اللاشعوريّة. وينسحب الشيء نفسه على الاهتمامات حديثة العهد التي تعطي الفرصة لظهور اهتمامات أكثر عمقا. فالحلم بصورة مبسطة مزيج من مواد مختلفة تتكون بالدرجة

ديناميّة لاشعوريّة بالغة العمق يطلق عليها فرويد رغبة. ويحدث أن العناصر قبلشعوريّة توظف لإنتاج ما يسمى *المضمون المعلن للحلم* وهي في كل الأحوال لا تمثل المضمون الكامن. وإذا حدثت إزاحة الأفكار التي يعبر عنها الحلم فإن ذلك يشير إلى كل ما يريده المرء: تحذيرات، مشاريع. ومع ذلك فإن الحلم يبقى تحقيقا لرغبة لاشعوريّة: فالحلم ليس مشروعا محدودا أو تنبيها قصير المدى بل يمثل وعلى نحو دائم مشروعا أو تحذيرا يُولّد ـ بتأثير رغبة لاشعوريّة ـ طريقة تعبير تسعى إلى تحقيق رغبة.

خامسا . أفعال ناقصة

وفي النهايّة يذهب فرويد إلى الاعتقاد بأن أفعالنا اليوميّة يمكن أن تكون تعبيرا عن نزعة لاشعورية، ومن هذا المنطلق فإنه يسعى في كتابه « *علم نفس الحياة اليومية* *Psychologie de la vie quotidienne* » إلى تحليل سلسلة من المظاهر والأعراض الحقيقيّة المندفعه من دائرة اللاشعور التي لا تعدو أن تكون غير أحداث بسيطة تحدث في سياق الحياة اليوميّة وهي معروفة من قبل الجميع، وغالبا ما تعزى إلى مجرد المصادفة: مثل زلات اللسان، وهفوات الكلام والنسيان المؤقت للاسماء، وضياع الأشياء المزعج، والأفعال

الناقصة، والأحداث العرضيّة من كل نوع. وإزاء هذه المظاهر يطبق فرويد اكتشافاته السابقة فيجد أن هذه المظاهر تعكس هجمة من النزعات اللاشعوريّة المتجهة إلى ساحة الشعور. فالهفوات لا تعبر عن الطبقات العميقة في المنطقة اللاشعوريّة فحسب، بل يمكن أن تفسر ومن خلال فكرة الصراعات النفسيّة الداخليّة يوضحها المثال التالي : كنا على وشك تدخين علبة جديدة من التبّاك، ولكننا اتفقنا على أنه يجب علينا أن ننتظر، وبعد مرور لحظات حيث استغرق كل منا في عمله ، دهشنا عندما وجدنا أنفسنا نشعل الغليون من العلبة الجديدة. هذه العمليّة بسيطة لمن اعتاد على مثل هذه العمليات اللاشعوريّة، ولمن ألف ما يسمى بالصراعات النفسية. لقد استبعدت النزعة الأولى، ولكنها كانت تسعى إلى تحقيق نفسها، ولا سيّما عندما تتوقف عمليات المراقبة. ونحن هنا نلاحظ ما يمكن أن يحدث على المستوى الواسع، ولا سيّما بالنسبة للنزعات التي توجد في العمق النفسي، كما هو الحال في حالتي العصاب والأحلام باستثناء المثال السابق، فإن النزعة قد تحررت نهائيا دون أيّة مصالحة أو اتفاق منطقي بين الشعور وبين اللاشعور.

الهفوات Les lapsus:

في حالة الهفوات، ولا سيّما زلات اللسان، وهفوات الكلام تكون الغايّة رغبة لاشعوريا، حيث تترك الكلمة المطلوبة مكانها لكلمة

أخرى غير مناسبة. وفي كل الأحوال، إذا كانت الهفوات أكثر تكرارا في حالة التعب والإرهاق، فإن حدوثها مرهون إلى حدّ كبير بمجموعة من الشروط ذات الطابع الفيزيولوجي. وهي تحمل في أكثر الحالات دلالة نفسية. حيث يترافق التعب بحالة ضعف الرقابة النفسيّة الخاصة بالكلام، وبناء على ذلك فإن الكلمة أو الفكرة المشوشة يمكن أن تمثل دافعيّة مضادة تناهض، وبشكل مباشر، المعنى المراد وقد تكون هذه الفكرة أو هذه الكلمة ذات طابع غائي في المستوى اللاشعوري.

يسوق لنا فرويد مثالا عن النوع الأول من هذه الهفوات، ويروي لنا الهفوة التي تخللت إحدى الخطب الرسميّة التي ألقاها رئيس مجلس الشعب النمساوي في إحدى الجلسات الرسميّة حيث افتتح الجلسة قائلا: "**سيداتي سادتي أعلن عن إغلاق الجلسة لحضور أكثريّة الأعضاء** " ويوضح هذا المثال أن الزعيم لم يكن يرغب في افتتاح هذه الجلسة.

ويسوق مثالا آخر من النوع الثاني من الهفوات، وهو حديث سيدة عرفت بحيويتها تشرح فيه أن زوجها "استشار طبيبه حول موضوع حميّة يريد اتّباعها وأن الطبيب قال له لا حاجة لك باتباع أيّة حميّة، *وأنه يستطيع أن يأكل ويشرب ما أريده أنا* !. الضمير هنا يعود للسيدة، وهنا كما يبدو تعبر هذه الهفوة عن تداخل شفوي لرغبتين مختلفتين. فهناك النزعة المشوشة، وهذا يعني أن سبب الهفوة بقي سطحيا وخارجيا ويمكنه ان يتحول إلى صورة شفويّة.

في كثير من الأحيان تبقى النزعة الفوضويّة المشوشة

لاشـــعورية، وليـــس غريبـــا أن تـــرى الشـــخص المعنـــي ينفـــي وبقـــوة التفسيرات المطروحة، وفي هذا الخصوص يروي لنا فرويد: أن أحد الأطباء المساعدين في مشفى فيننا Vienne قد رغب في شرب نخب أحد اساتذته فناداه قائلا: ***إنني أدعوك إلى اسقاط نجاح رئيسنا !***" وذلك بدلا من أن يقول "***إنني ادعوك لشرب نخب نجاح رئيسنا***". وهنا يؤكد فرويد على وجود غيرة عدوانيّة عميقة ضد الاستاذ، وهو عندما وضع المساعد في هذه الصورة أجابه بطريقة غير ودية. ويبدو أن الأمر يتعلق هنا بنزعة مكبوتة، وهي بالتأكيد مجهولة من قبل صاحبها. وفي بعض الحالات، عندما تكون الهفوات عائدة لبعض المرضى، يدرك المحلل بعمق لاشعور هؤلاء من خلال الحلم، أو من خلال التداعيات. لقد قال له أحد مرضاه ويدعى جونس **Jones** ***كان والدي مخلصا لزوجتي*** ! ثم عاد قائلا "***كان يجب أن أقول أمي بدلا من زوجتي***". وفي إطار ذلك يمكن القول إن الأسباب الأساسيّة لعصاب هذا المريض تكمن في آلامه الخاصة بتعلقه الشديد بأمه حيث نجد هنا تركيزا على الأم. ويقول فرويد في هذا الخصوص لو لم يكن تفكير هذا المريض قد تعرض للكَبْت فإنه كان يتوجب عليه أن يقول بالأحرى "***موقفي تجاه والدي هو موقفي نفسه تجاه والدتي***".

فالهفوات الكلاميّة، والأخطاء الكتابيّة، تفسر بصورة لاشعورية. ويمكن إضاءة هذه الفكرة بسرد حديث السيدة التي ذكرت بأنها تلقت رسالة من صديق قديم تنتهي بهذه العبارة: "***اتمنى أن تكوني بصحة***

جيدة وبائسة "، لقد كان يرغب يوما في أن يتزوجها وبالتالي فإن هفوته تشير إلى رغبة دفينة لديه في أن يراها بائسة.

الإدراكات الخاطئة:

يمكن لنا أن نفسر أخطاء الإدراك بطريقة مماثلة، فنحن أحيانا لا نرى أشياء ننفرمن رؤيتها، وعلى خلاف ذلك، فإننا نرى دائما ما نرغب في رؤيته. ويمكن القول في هذا النطاق: إن أخطاء القراءة هي عمليّة إزاحة لكلمات نرغب فيها، والمعرفة الخاطئة لبعض الأشخاص تعبر عن رغبة دفينة في رؤيّة الأشخاص الذين نحبهم. وعلى خلاف ذلك يمكن لشخص لا يهمنا أمره ونعرفه جيدا أن يمر بقربنا في الشارع من دون أن نتعرف إليه.

النسيان Les oublis:

يعارض فرويد، في تفسيره للنسيان، الفكرة التقليديّة التي تقول بأن النسيان ظاهرة سلبيّة، وأنها عمليّة زوال للمعلومات ؛ وعلى خلاف ذلك يتحدث فرويد عن نوع من النسيان النشط الناجم عن كوابح وفعاليات. ونلاحظ، في هذا الخصوص، أن هذه الفكرة تأخذ أهميّة مركزيّة في التحليل النفسي، فالأحداث المؤلمة غالبا ما تُصد وتستبعد من ساحة الذاكرة.

هذا ويعطي فرويد أهميّة خاصة لظاهرة نسيان الاسماء: عندما

ننسى اسم شخص ما فذلك قد يعني أنه لا يهمنا كثيرا، وقد يعبر ذلك عن موقف عدواني تجاهه، وقد يشير ذلك إلى أن هذا الاسم يرتبط بخبرات مؤلمه .

يروي جونيس أن أحد أصدقائه تعرف على فتاة شابة ثم أصبحت صديقته فيما بعد، وحدث له أنه لم يستطع تذكر اسم عائلتها في الوقت الذي كان يرغب فيه في أن يوجه إليها رسالة، وبقي يحاول تذكر اسم عائلتها لمدة أسابيع دون وحال ذلك بينه وبين أن يوجه لها الرسالة المنشوده، ولم تساعده الرسائل التي كانت تصله منها لأنها كانت تحمل اسم المعموديّة.

لقد بين التحليل أن اسم المعموديّة الخاص بالفتاة كان اسم فتاة ثانيّة يدللها، وهو أيضا اسم فتاة ثالثة كان يحبها عندما كان صغيرا، لقد كان ينقل محبته من الواحدة إلى الأخرى واستطاع أن يتمثل وبشكل لاشعوري الفتيات الثلاث داخل نفسه. وبهذه الطريقة يبقى مخلصا لحبه وهو بالتالي كان يتراجع أمام أيّة ذكرى تشير إلى عدم إخلاصه الحقيقي.

وفي النهايّة يمكن القول إن فرويد كان متوافقا مع الرأي الشائع الذي يعطي خصائص إيجابيّة للنسيان. وغني عن البيان أن هذا الرأي ينظر إلى الفرد بوصفه مسؤولا عن أخطاء ذاكرته. وفي هذا الخصوص نجد أن النساء والسلطات العسكريّة ترى أن كل ما يتصل بهما يجب أن لا يكون في متناول النسيان. وإذا كان الأمر يتعلق بمسألة هامة فإن النسيان يدل

على أهميّة خاصة تستحقها. ومن هذا المنطلق يبدأ فرويد بتحليل دقيق لسلوكات المجاملة والرياء الاجتماعي.

فالاعتذار بسبب ضعف الذاكرة قد يسبب آلاما أكثر شدة. لنتصور سيدة ما تستقبل ضيفها وهي تقول: "*كيف نسيت أنه اليوم الذي اتفقنا فيه على أن تأتي لزيارتي أعذرني لقد نسيت ذلك تماما* ". إن هذه السيدة تفتقر، وفقا لصورة الإستقبال هذه، إلى كل الشروط الخاصة باللياقه، وبالتالي فإن النسيان في حالتها هذه يعود إلى رغبة قد تكون لاشعوريّة ولكنها جارحة في كل الأحول.

إن نسيان الهدايا التي حصل عليها الشخص من أحد أصدقائه أو معارفه لا يعبر عن موقف جيد تجاه الأشخاص الذين قدموها. **وعندما يحدث في شهر العسل أن تضيع فتاة خاتم خطبتها مرات عديدة فإن ذلك يمثل طابع شؤم بالنسبة لمستقبلها الزوجي.**

ويذكر فرويد في هذا الخصوص قصة طريفة لزوجين، لم تكن علاقتهما مشبعة بالعاطفة، ومفادها أنه في أحد الأيام قدمت الزوجة لزوجها هديّة، وهي عبارة عن كتاب للفيلسوف الشهير كانت، وكانت تعتقد أنه سيثير إهتمامه. شكرها الزوج ثم وضع الكتاب في مكان ما. وعندما بحث عنه لم يستطع أن يجده، وبقي الكتاب مفقودا خلال مدة ستة أشهر حيث لم يستطع الزوج أن يعثر عليه. كان الزوج يحب أمه كثيرا، وعندما كانت هذه تعاني من المرض كانت زوجته تعتني بها بكل وفاء وتضحيّة، وهو عمل كان يلامس فيه أعماقه ويوقظ فيه عاطفه قويّة نحو زوجته. وفي إحدى

الأمسيات، عند عودتهما من عند الأم المريضة شاعرا بالإمتنان تجاه زوجته، اقترب من إحدى الخزنات الصغيرة بصورة لاشعوريّة ثم فتحها آليا وسحب جرارا بداخلها ثم أخرج الكتاب المفقود.

* * * * * *

اللاشعور والجنس

الفصل الثاني

تطرح الأعراض المَرَضيَّه العصابيّة، والأحلام وبعض جوانب سلوكنا اليومي، نفسها في صيغة اندفاعات تهاجم ساحة الشعور، ولكنها تجابه برقابة تمنعها من الوصول إلى غايتها بطريقة مباشرة. وترتبط هذه الاندفاعات اللاشعوريّة مباشرة بواقع الصراعات التي تنشب فيما بينها من جهة، وبينها وبين الرقابة الشعوريّة من جهة أخرى.

والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو ما طبيعة المثيرات والرغبات المرفوضة شعوريا أيضا؟ ويمكن للأمثلة التي سقناها حول الأعراض المَرَضيَّه للأحلام أن تساعدنا على أن ندرك بأن العنف يميّز هذه النزعات وهذه الاندفاعات.

كان فرويد يعتقد ـ في مدار أعماله الأولى على الأقل ـ بثانويّة

العنف، وأنه يمثل جانبا من مجموعة من الميول الواسعة التي تهيمن على سلوك الفرد، وهي النزعات الجنسيّة أو الليبيديّة. ويمكن القول هنا أن عقيدة فرويد حول هذه النقطة تنبثق من تقصياته التحليليّة نفسها. إذ غالبا ما تأخذ الذكريات المَرَضيَّه عند المرضى علاقة مع أحداث تخص حياتهم الجنسيّة، فالمقاومة التي يبديها المرضى كانت على العموم تشمل التعبير عن التفاصيل الخاصة برغباتهم الداخليّة الجنسية. هذا ويرى فرويد في نسق العناصر النفسيّة المكبوتة طبيعة جنسيّة، وأن هذه العناصر تعيش داخل اللاشعور الذي يعبر عنه بأنه النتاج المكبوت جنسيا. وفي هذا الخصوص يقول فرويد في كتابه *حياتي والتحليل النفسي : إن توقعاتي لم تكن في مكانها، ولذلك قمت بإجراء أبحاثي حول بعض العصابيين وهم في حالة سذاجة كاملة.*

ومن جهة أخرى، وباستثناء حالات بعض المرضى النورستثنيين Neurasthenie (النهك العصبي)، الذين يواجهون مشكلات جنسيّة، فإن المحلل النفسي، غالبا ما، يتوغل في المراحل العمريّة المبكرة في حياة المريض، ولا سيما في سنوات الطفولة الأولى، ليكتشف، عبر منهج التداعي، أن الخبرات المؤلمة تعود إلى مراحل مبكرة جدا من تاريخ التطور النفسي للفرد. وباختصار يمكن القول إن الصراعات المَرَضيَّه صراعات ناجمة عن الجنسيّة الطفولية، وهي نتاج لبعض الخبرات المتصلة بالحياة الجنسيّة في مرحلة الطفولة. وهذه النتائج وضعت فرويد على مسار البحث عن الجنسيّة الطفليّة وعن مراحل تطورها.

أولا . نظرية الجنس

La théorie de sexuelité

المراحل الأولى:

قد يبدو الحديث عن جنسيّة طفليّة غريبا إلى حدّ ما، فالناس يعتقدون بصورة عامة أن مفهوم الجنس يعود إلى الغريزة الجنسيّة كما تتبدى عند الراشدين والتي تتميز بسمات محددة واضحة. ومع ذلك فإن فرويد لا يتردد في الحديث عن نشاط جنسي عند الأطفال حتى عند الرضع ولكنه في سياق ذلك يعطي للكلمة أبعادا أكثر شمولية. لقد أتاحت له الدراسات التحليليّة فرصة الاعتقاد بأن الجنسيّة عند الراشدين تتكون من مجموعة من النزعات الجزئيّة المتكاملة التي تكون مفككة في بعض الأحيان. لقد بدا له أن الوظيفة الجنسيّة تتشكّل تدريجيا عبر مراحل مختلفة حتى اللحظة التي تدفع فيها في مسار إعادة الإنتاج.

فالنزعات الجزئيّة تتحد لتشكّل هذه الغريزة الجنسيّة في صورتها الأخيرة، وهذه النزعات الجزئيّة هي نزعات جنسيّة في طبيعتها. وتشكّل هذه النزعات في صورتها الأوليّة أو الطفليّة المنطلق الاول للجنسانيّة، وهي بالتالي ترسم خطوط المراحل الأولى للتطور الجنسي عند الفرد.

فما هي هذه المراحل؟ لنرسم في البدايّة ملامح المنطلق

الخاص بالمفاهيم. يقترح فرويد في هذا الصدد استخدام مفهوم الليبيدو Libido ليشير بذلك إلى القيمة الديناميّة للنزعات الجنسيّة الطفليّة أو هذه التي توجد عند الراشدين. فالليبيدو ، كما هو الحال بالنسبة لواقع الجوع، يحدد القوة التي تُنهض الغريزة الجنسيّة، وذلك وفقا للمبدأ نفسه الذي يتحدد فيه الجوع بالقوة التي تدفع إلى تناول الطعام. وهذا يعني بالنتيجة أن تطور الجنسيّة وتطور الليبيدو يعنيان شيئا واحدا عند فرويد.

يميز فرويد، في مسار هذا التطور، بين مرحلتين طفليتين في مرحلة ما قبل البلوغ: تمتد المرحلة الأولى من الميلاد حتى السادسة من العمر وهي المرحلة التي تميز النمو المزدهر لليبيدو. ثم تأتي المرحلة الكمونيّة التي تتميز بها النشاطات النفسيّة التي تمارس عمليّة القمع، أو ما يسمى بالعوائق وذلك وفقا للتعبير الموظف في كتاب فرويد الموسوم بـ « *ثلاث مقالات في نظريّة الجنس عام ١٩٠٥* *Trois essais sur la sexuelité* ».

تمر الجنسيّة خلال مرحلة الطفولة الأولى بثلاث مراحل تظهر فيها النشاطات الجنسيّة وفقا لأهداف مختلفة (ويسمي فرويد هدفا نوع الإشباع الجوهري لنزعة جنسيّة ما). ويمكن أن نذكر هذه المراحل على الشكل التالي:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة الفمويّة Oralالتي ترتبط بعمليّة المص التي تعد اللذة الأساسيّة التي تسم مرحلة الرضاعة.

وتنطوي هذه اللذة على طابع جنسي كما ينظر إليها فرويد. ويمثل نشاط رضاعة حليب الأم نقطة الإنطلاق الأولى بالنسبة لجميع النشاطات الخاصة بالحياة الجنسيّة.

وتأتي المرحلة الشرجيّة Anale التي تتوافق مع المرحلة الأولى وتأتي على أثرها: وترتبط هذه المرحلة بإرضاء بعض الحاجات العضويّة التي تمثل هدف الليبيدو. وأخيرا تأتي المرحلة التناسليّة Genital التي تعكس الوظائف الأساسيّة الحيويّة الخاصة بالأعضاء التناسليّة.

يلاحظ في ضوء الملاحظات السابقة أن موضوع الليبيدو يتجه في الأصل نحو ثديي الأم ثم جسد الطفل. فهناك مرحلة انتقاليّة أوليّة من جنسيّة غيريّة إلى جنسيّة ذاتيّة. ولكن الجنسيّة الغيريّة لا تلبث أن تعود إلى الظهور من جديد، وذلك في الوقت الذي تستيقظ فيه النزعات النفسيّة للغريزة الجنسية. وأنه لمن الطبيعي جدا أن يتجه الليبيدو في نهايّة تطوره إلى موضوع خارجي خاص بدلا من التمركز على الذات.

ولا بد من التنويه في هذا الميدان إلى أن الليبيدو قبل أن يأخذ صيغته النهائيّة، وفي مرحلة ما قبل المرحلة الكمونيّة بقليل، يمر بمرحلة الاتجاه نحو المحارم، وهذا ما يعبر عنه بعقدة أوديبComplexe de Œdipe.

عقدة أوديب: Complexe de Œdipe

قدَر أوديب، كما تروى الأسطورة اليونانيّة، أن يقتل أباه ويتزوج أمه. وتشكّل هذه الأسطورة منطلق فرويد في تفسيره لتمركز الرغبة الجنسيّة عند الأطفال نحو الجنس المقابل من الأبوين، والتي تترافق بمشاعر غامضة من الغيرة والكراهيّة ضد الأب من الجنس نفسه. وتشير هذه العقدة ، كما هو مبين، إلى حب الأم وكراهيّة الأب. وهما الشعوران المركزيان في عقدة أوديب، وتفرض هذه الفكرة نفسها في النسق النظري عند فرويد من خلال تجاربه الخاصة بمبدأ التداعي الحر. وهو يشير إلى ذلك بطريقة مباشرة حين يقول: *يرغب الطفل الصغير أن يمتلك أمه لوحده، وبالتالي فإن حضور الأب يسبب له الألم لأنه يحيط الأم بحنانه وعطفه* " ومن الوجهة المقابلة تأخذ الفتاة الصغيرة موقفا مجانسا ولكن بشكل معكوس تماما: حب الأب والغيرة من الأم، فهي تحيط الأب بمشاعر الحب وتسعى إلى إبعاد الأم التي تسبب لها المضايقة.

يمر كل فرد في دوامة هذه المرحلة الأوديبيّة، كما يعتقد فرويد، وذلك بطريقة تتباين درجة حيويتها وفعاليتها وغموضها، وقد تكون هذه الطريقة معلنة أو مضمرة. ولابد من الإشارة هنا إلى وجود عقدتين اساسيتين ترتبطان بعقدة أوديب هما عقدة الخصاء Complexe de Canstration وترتبط هذه العقدة بالخوف الشديد من الأب، ثم عقدة

الغيرة العائليّة Complexe familial: فالأطفال البكر يغارون من المواليد الجدد، الذين يعكسون تهديدا يتمثل في الخوف من فقدان حنان الأبوين وهذا يجعلهم يشعرون بنوع من الحقد والكراهيّة تجاه إخوتهم الصغار.

مرحلة البلوغ وما قبل البلوغ

:Période de latence et de Puberté

في حوالي السادسة من العمر تقريبا يشهد الليبيدو لحظة توقف في نشاطه، وهي اللحظة التي يتم فيها محو الذكريات والأحداث الخاصة بالمرحلة الأولى من الطفولة حيث تتجه العقدة الأوديبيةنحو الحل تدريجيا. وتظهر في هذا المستوى عقبات جديدة تعمل بالنتيجة على كَبْت الرغبات الطفليّة وتدمير ذكرياتها. فالخجل يكّف بعض النزعات الخاصة بالإستعراء، ويؤدي تطور العاطفهإلى كبح النزعات الساديّة العدوانيّة الخ...

مع مرحلة البلوغ يأخذ الليبيدو طريقا جديدة، حيث تبدأ مرحلة أزمة حادة، تحدد كيفيّة الخروج منها طابع الحياة الجنسيّة اللاحقة برمتها. وترتبط كيفيّة الخروج من الوضعيّة الأوديبيّة بالنزعات الطفليّة وتتأثر بمدى قوتها وإكراهاتها. فالفرد في المراحل السابقة كان يواجه مهمة صعبة تتمثل في الانفصال عن الوالدين، وعندما ينجز هذه المهمة يستطيع أن يكف عن أن يكون طفلا لكي يصبح عضوا في الجماعة. حيث يترتب على الطفل في المراحل السابقة أن ينفصل عن أمه، وأن

يتخلى عن رغباته اللبيديّة تجاهها، وان يركز هذه الطاقة اللبيديّة على موضوعات خارجيّة. ويترتب عليه أيضا أن يجد المصالحة مع أبيه وأن يتحرر من اتجاهاته العدوانيّة نحوه، وفي الوقت نفسه، أن يتحرر من سلطته وأن يدفن عناصر مخاوفه التي يشكل الأب ينبوعا لها. وبالنتيجة، وانطلاقا من ردود الفعل الخاصة بالثورة الطفليّة ضد الأب، يتجه الابن إلى دائرة الحب والطاعة للأب. وتمثل هذه المهمات ضرورة يترتب على كل فرد أن يمرّ فيها وأن يتجاوزها، وقلما يصل أحد ما إلى تحقيق النجاح بصورة مثاليّة في تجاوز هذه المرحلة. **والعصابيون هم هؤلاء الذين لا يحالفهم النجاح في الخروج من الحالة الأوديبيّة ويفشلون تماما، وهذا يعني أن عقدة أوديب تشكّل نواة الأمراض العصابيّة ومنطلقها.**

ثانيا . العصاب وتطور الجنسية :

يجب علينا بالنتيجة أن نأخذ، بعين الاعتبار، أهميّة المرحلة الأوديبيّة في تشكل الأمراض العصابيّة. فالجنسانيّة المكبوتة تقود إلى الأمراض العصابيّة، وذلك يؤدي إلى تعقيد المخطط المشار إليه سابقا. ونحن في هذا الصدد نقول "*إن الأعراض العصابيّة نتاج لصراع قديم في مرحلة ما من مراحل تطور الشخصية*". وهناك بالضرورة شرطان اساسيان لتكون العصاب، وهما شرطان يتغايران، كما يقول فرويد ،

بصورة نسبيه، فهناك شرط قديم في الطفوله، وشرط يفرض نفسه في المرحلة الراهنه.

ومما لا شك فيه أن تأثير الشرط الأول قد حدث في مرحلة الطفولة. أما الشرط الثاني فيعتمد على أحداث تتم اتفاقا. هذا وينطوي الشرط الأول على مضامين وأحداث طفوليّة تتعلق بالحياة الجنسيّة للطفل، ولا سيّما هذه التي ترتبط بالتجارب الهامة للطفل الناجمه عن تأثير نزعاته الأوليّة. أما الشرط الثاني فيتوافق مع مجموعة من الأحداث المؤلمه في الحياة التي تبدأ مع البلوغ وتتصل بحياة الفرد الجنسية. وذلك كله دون أن نضع في حسباننا الحرمان أو التجارب المؤلمة جدا على المستوى العاطفي مثل: الزواج البائس، وموت الأعزاء والأحبة.

النكوص والتثبيت: Regression et Fixation

يستند توازن القوى في حالة العصاب إلى معطيات قديمة وحديثة في آن واحد. وينطلق التفسير الممكن لهذه المقولة من مفهومي النكوص Regression والتثبيت Fixation فما الذي يعنيه هذان المفهومان؟

يتصور فرويد بدايّة أن التغيرات التي تتم في حياة الراشد تضع تضعه أحيانا في طريق مسدود، حيث تحيط به مشكلات لا يجد لها

مخرجا، فيندفع الليبيدو على أثرها، ناكصا إلى المراحل الطفليّة الأولى. فالليبيدو في هذا المستوى ينطوي على نفسه، ويبدأ بالعمل وفقا للسلوك المعهود في المرحلة الطفليّة الأولى، وهذا يشير إلى سلوك قديم يعاود نفسه. ويمثّل هذا النكوص إحياء نزعات موغلة في عمق لاشعور الفرد.

ولكن النكوص في هذا المستوى يحتاج إلى نقاط تركيز، إذ يجب على الليبيدو في واقع الأمر أن يأخذ مكانه داخل محطات أساسيّة من مراحل نمو الفرد. ففي مرحلة الطفولة يمكن الإشارة إلى بعض مكونات الليبيدو التي لم يكتمل نموها وعانت من توقف في مستوى تطورها. وإذا كانت هذه المكونات قد شهدت، في المرحلة السابقة، صراعا عنيفا بين الدوافع ، فهي هنا تشكّل ما نسميه مرتكزات التثبيت الخاصة بالليبيدو والتي تكون مستقرا للسلوكات الناكصة.

فالصراع يحتدم هنا بين نزعات مكبوتة، منذ زمن بعيد، وبين متطلبات الأنا الحاضرة. فالأزمات التي تحدث اتفاقا والنكوص الليبيدي يؤديان إلى حدوث تغيرات جديدة في طبيعة علاقات القوة القائمة بين اللاشعور في مرحلة الطفولة وبين الشعور الراهن. فالمكبوت يستمد بعض القوة. وعلى أثر ذلك تظهر الأعراض المرَضيَّه ، وهنا يمكن الحديث عن صراع يقوم بين النزعات الأخلاقيّة وبين الميول الجنسيّة الشاذة الناجمة عن نشاط النكوص.

فالهيستيريا تمثل كما يعتقد فرويد عودة إلى الموضوعات الأولى التي تتصل بالمحرمات، وبالتالي فإن الهستيريين يناضلون ضد

هذه النزعات نحو المحارم.

ويمثل العصاب الوسواسي عودة إلى مراحل سابقة، كالمرحلة السادية، وهذا بدوره يفسر الاندفاعات القسريّة ضد الموت: يوجد أحيانا في داخل هذا العصاب نكوص يترافق مع نزعات ساديّة تتجه نحو الأشخاص المحبوبين، وذلك يشكّل مصدر رعب وتعذيب يشل حركة المريض ووجوده.

التثبيت على الأبوين :

يوظف فرويد يوظف مفهوم التثبيت Fixation بمعنيين مختلفين ولكنهما متقاربين: فهو يشير، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، إلى تثبيت الليبيدو على السبب الذي أدى إلى تأخر نموه ؛ بينما يشير، بالمعنى المحدود لهذه الكلمة، إلى طبيعة العلاقة الخاصة المكثفة التي تدفع الفرد إلى التعلق بموضوع نزعته الليبيديّة، ولا سيّما في المرحلة الطفليّة الأولى. وغالبا ما يتحدث المحللون النفسيون عن " تثبيت على الأب" و " تثبيت على الأم" .

تشير عقدة أوديب، الخاصة بالصبيان، إلى وجود رغبة نحو الأم، ويؤدي تعاظم هذه الرغبة إلى نوع من التثبيت Fixation على الأم. ومن هذا المنطلق يمكن الحديث عن عدد من موضوعات التعلق والتثبيت. فالعقدة الأوديبيّة تستثير صراعات، وردود أفعال، وأحاسيس

بالذنب، وهي تشكّل مصادر الاضطرابات السيكولوجيّة.

هذا ويمكن للعقدة الأوديبيّة أن تأخذ اتجاهات غير مألوفة بل شاذة أحيانا، وهي الحالة التي يتعلق فيها الصبيان بآبائهم، حيث يشكّل الأب مركزيّة التثبيت عند الفرد، وذلك يشكّل فيما بعد منطلق الميل إلى الجنسيّة المثليّة Homosexuel.

المخطط الأول للأعراض المرَضيَّه عند العصابين:

يمكننا أن نلاحظ سلسلة من الصراعات التي تعود إلى مرحلة الطفولة، ويمكن أن نلاحظ أيضا أن الأنا Le moi يواجه عمليّة التثبيت ويمنعها وذلك بمساعدة عمليّة الكَبْت.

ويمكن للمرء هنا أن يتساءل ما إذا كانت محاور التثبيت الليبيديّة تتحدد بطريقة إراديّة أم وفقا لمبدأ المصادفة. يعتقد فرويد، في هذا المستوى، بوجود مجموعتين من الشروط: فهناك بالتأكيد وضعيات فطريّة موجودة بشكل مسبق، ولكن الأحداث التي ترسم آثارها على الكائن، ولا سيّما في مرحلة الطفولة، لها تأثير كبير جدا، مثل: الفطام، والملاحظات الخاصة بالعلاقات الجنسيّة للأبوين، والإنحرافات التي يمارسها الراشدون، والتهديد بالخصاء، وذلك كله يمارس دوره في عمليّة تركيز مزعج ومحزن حول النزعات الطفليّة التي تغدو مؤلمة جدا.

لقد لوحظ أن موت الأب يحدث اضطرابات عنيفة وخاصة

عندما يموت الأب في الوقت الذي يعيش فيه الطفل حالة أوديبيّة في أوج نشاطها: فالطفل يحمل نفسه بصورة لاشعوريّة ذنب وفاة الأب ويعقب ذلك وضعيّة عصابيّة على نحو سريع.

يقترح فرويد، في النهايّة، وذلك في *كتابه مقدمة في التحليل النفسي* المخطط التالي لتوضيح المضمونات المَرَضيَّه للهستيريا والعصاب الوسواسي:

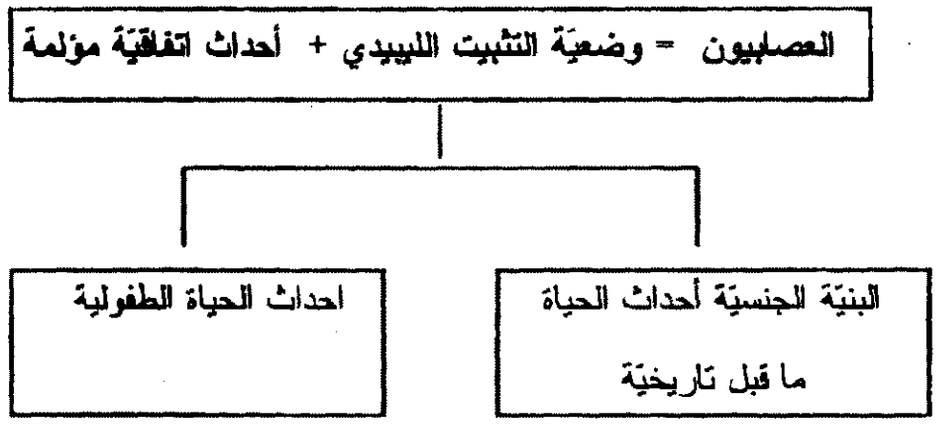

ويمكن، في هذا الصدد، أن نذكر المثال المستمد من لافورج Laforgue، في كتابه: *التحليل النفسي الإكلينيكي*،الذي يوضح فيه المخطط السابق: لقد غدا أحد الشباب لواطيا وذلك على أثر علاقة جنسيّة مع فتاة أدت إلى حمل غير شرعي (حدث اتفاقي). وهنا يكشف التحليل عن وجود تثبيت طفولي مكثف يعود إلى صراعات متكررة بين الأبوين أخذ فيه الطفل دائما جانب الأم (وضعيّة طفوليّة)، والعمليّة كما يبدو سهلة للغايّة: المماثلة بين الفتاة وبين الأم. وفي مرحلة الرشد تمثلت الأزمة في إحياء الصراعات القديمة التي تضمنت كَبْت

الرغبات نحو المحرم، وهي رغبة ينهكها الإحساس بالذنب الذي قاد المريض بدوره إلى العصاب، وإلى الإنحراف نحو الجنسيّة المثليّة اللواط.

العصاب والذهان Nervose et psychose [11] :

اتجهت أبحاث فرويد الأولى لدراسة عصاب التحويل Nevrose de transfert: فالهستيريا أو الطاقة المكبوته تتحول إلى أعراض مَرَضيَّه عضويّة. وفي هذا السياق يمكن لحالات التوتر أن تتحول إلى حصر Angoisse ، وإلى رهابات Phobies ؛ وفي قلب هذه العمليات تأخذ الأفكار الوسواسيّة عن طريقة الإزاحة صورة تختلف إلى حدّ كبير عن صيغها الأوليّة.

بعض العصابيين، كما تشير ابحاث فرويد الأوليّة، يستجيبون للاضطرابات الجنسيّة بطريقة مباشرة، وذلك هو حال النوراستينيين Neurasthénie[12]، والوسواسيين Hypochondrie[13]، وهم يعودون إلى حالتهم الطبيعيّة تماما عندما تزول شروط الإستثارة الجنسيّة.

---

[11] الذهان Psychose: مرض عقلي يفقد فيه المريض القدرة على التوافق العقلي والاجتماعي، ويترافق ذلك مع اضطرابات عامة في الشخصيّة، ومع فقدان القدرة على الاستبصار. وتطلق كلمة الذهان تطلق على الحالات نفسيّة المنشأ فقط (المترجم).

[12] النورستانيا أو الخور العصبي Neurasthénie: يشير مفهوم النورستانيا إلى حالة من الإنهاك العصبي على المستويين العقلي والجسدي، ويعاني فيها المصابون حالة من

يطلق فرويد على العصابيين، المصابين بالذهان[١٤] Psychose، والذين يعانون من استلاب ذهني تسميّة عصابيين نرجسيين[١٥]، وذلك لأنه يعتقد بأن نكوص الليبيدو إلى مستويات النرجسيّة الجنسيّة هو الذي يؤدي إلى بناء هذا المرض، مع أنه لم يحدد هذه المسألة بدقة في إطار تصوراته للجنسيّة الطفولية. فالنرجسيّة حالة يأخذ فيها الليبيدو من الأنا Le moi موضوعا له، وهذا يعني أن الخطوة الأساسيّة لعمليّة العلاج لا يمكن أن تجري بشكل طبيعي.

الإحساس بالاعياء والإنهاك، وعدم القدرة على أداء الأعمال العاديّة، وذلك دون سبب فيزيولوجي واضح (المترجم).

[١٣] الوسواس Hypocondrie: الشكوى من أعراض مرضيّة جسديّة دون سبب جسمي أو فيزيولوجي. وينشأ توهم المرض عن وجود صراعات لاشعوريّة تعطل قيام أعضاء الجسم بوظائفها وخاصة الجهاز الهضمي. ومن جهة أخرى يمكن القول أن مدرسة التحليل النفسي تنظر إلى المصابين بهذا المرض على أنهم أشخاص يقامرون بأجسادهم حيث يكون المرض هو الشكل الوحيد المسموح به للتعبير في المجتمعات القمعيّة (المترجم).

[١٤] الذهان Psychose : مرض عقلي يفقد فيه المريض القدرة على التوافق العقلي والاجتماعي (المترجم).

[١٥] النرجسيّة Narcissime: تعني النرجسيّة عشق الذات، أو المبالغة في حب الذات والإعجاب بها ؛ وتعود هذه الكلمة إلى الأسطورة اليونانيّة ومفادها: أن نارسيوس كان يستمتع بالنظر إلى صورته التي ترتسم على صفحات ماء النهر، وقد أخذ بمشهد صورته هذه حتى سقط في مياه النهر وغرق. ويقصد التحليل النفسي بالنرجسيّة المرحلة التي تتميز بميل الفرد إلى اتخاذ ذاته موضوعا لعشقه (المترجم).

ثالثا . تشكل الأعراض المَرضيّة

L'élaboration des symptomes

الحلم:

لو عدنا الآن إلى الأعراض، التي لاحظناها في صورة الأحلام، لاستطعنا أن ندرك ، بسهولة، أن هذه الأعراض لا يمكن أن توجد من غير علاقات مع تطور الجنسيّة. ويترتب علينا في هذا المقام أن نستعرض العمليات الخاصة بتكوين الحلم، وهذا يعني الطريقة التي يعتمدها اللاشعور، والصيغة التي يأخذها المكبوت، لهدم الحواجز التي يواجهها، ويشير ذلك أيضا إلى الآثار التي يتركها المكبوت في ساحة الشعور، وإلى الإتفاقيات التي تحدث بين اللاشعور والأنا، وذلك في اللحظات التي يضعف فيها الأنا أو يَهِن، هذا ويبيّن التحليل النفسي أن هذه العمليات هي ذاتها التي توجد خلف عمليّة بناء الأعراض العصابية. وسنعمل هنا في هذه المناسبة على إتمام التفسير الفرويدي للعصاب.

الحلم والجنس:

ما طبيعة الرغبات اللاشعوريّة التي يجعل منها فرويد مصدرا للأحلام؟ ما نعرفه حتى هذه اللحظة عن اللاشعور، ومن خلال الدراسات التي أجريت على العصابين، لا يتجاوز حدود ما يؤكد

وجود علاقة بعيدة أو قريبة بين المظاهر المَرَضيَّه،وبين النزعات الجنسية. لقد قاد تحليل الأحلام فرويد، في أغلب الحالات، إلى إدراك المكونات المختلفة لليبيدو التي ترتبط بالعقدة الأوديبيّة، أو بعناصر جنسيّة أخرى. ومع ذلك فإن فرويد يعترف بأن الرغبات المحركة للحلم ليست بالضرورة رغبات من نسق جنسي، فهناك مجموعة أخرى من الرغبات يمكن أن تكون في اساس الحلم بشرط أن تكون هذه الرغبات مكبوتة في الحدود الدنيا. يقول فرويد في هذا الخصوص في كتابه *"تفسير الأحلام" لا يجب أبدا أن ننسى أهميّة المرّكَب الجنسي، ولكن لا يجب أن نبالغ إلى حدّ النظر إليه بوصفه يملك تأثيرا نهائيا وبلا حدود. إن القول بأن جميع الأحلام يجب أن تفسر على نحو جنسي مقولة تخالف منطق العلم في تفسير الأحلام.*

تتطلب معرفة الدور الذي يؤديه الليبيدو داخل اللاشعور من المحلل أن يبحث عن المحتوى الكامن الجوهري للحلم وذلك داخل المركبات الجنسية. فالميول المكبوتة يمكنها أن تنتمي في إطار هذه الحالة إلى ماض قريب نسبيا كما يمكنها أن تعود إلى المرحلة الطفليّة من الحياة. قالت إحدى السيدات لفرويد: إنها حلمت بأن ابنتها قد توفيت وهي لم تتجاوز بعد السابعة عشرة من العمر. لقد افترض فرويد أن السيدة كانت قد تمنت الموت لابنتها في إحدى المرات وذلك على نحو شعوري ثم أصبحت هذه الرغبة لاشعوريّة لاحقا فالابنة كانت نتاجا لزواج بائس انتهى بطلاق بين الزوجين. ولما كانت الأم حاملا

بطفلتها هذه فهي وعلى أثر مشاجرة مع زوجها بدأت تضرب نفسها ساعيّة إلى اجهاض نفسها متمنيّة موت من في احشائها. وهذه الأحداث القديمة تفسر بوضوح الرغبة اللاشعوريّة عند الفرد الخاصة بموت أحد الأحبة أو الأقرباء.

وغالبا ما يعود المحلل النفسي إلى ذكريات بعيدة جدا، وذلك في مرحلة الطفولة، وهي المرحلة التي تنتظم من خلالها وعلى نحو لاحق الحياة اللاشعوريّة للنفس الإنسانيّة، وهذا يسميه فرويد بالزمن القديم للحلم. ومن هذا المنطلق فإن العقد والمركّبات مثل عقدة أوديب وعقدة الخصاء تمثلان مفتاح الأحلام.

وفيما يلي نقدم أمثلة لأحلام تمثل عقدة أوديب. يقول أحد الحالمين: " **دخلت إلى قبو المنزل وأدهشني ما يوجد هناك من الرطوبة والحرارة. وعندما تقدمت عدة خطوات احسست أن شيئا أخذني من الخلف وبدا لي أن أحدا ما يريد أن يطعنني بخنجره** ". نلاحظ في بنيّة هذا الحلم وجود عناصر تتصل بالقهر الأبوي المرتبط بوضعيّة التعلق بالأم.

تقول حالمة أخرى أنها شاهدت نفسها على شاطيء البحر، وفجأة ترى لها منزلا كبيرا في نهايّة الشاطيء، ثم تشاهد نفسها وكأنها داخل قارب صغير على مسافة قريبة من المنزل، ثم بدأت موجات عاتيّة تحيط بقاربها، وبدا لها وكأن المنزل يتحرك وكأنه قارب. بعدها شعرت الحالمة بالدوار، وذلك لأن القارب يتحرك على منوال المنزل، وهي في إطار قلقها هذا دفعت أمها داخل المياه، وفي هذه اللحظة

نفسها تشعر بأن القارب بدأ ينساب ويطرحها داخل الماء، ثم تصيح طالبة النجدة، وعلى أثر ذلك تشاهد أباها قادما بين المنقذين ليأخذها بين ذراعيه، ثم تضمه إليها صائحة بابا بابا.

لا يتطلب تفسير هذا الحلم مشقة كبيرة: فالعلاقة الحميمة بين الأم وبين ابنتها تتقطع وهي تنادي أباها. أما فيما يتعلق بالمنزل الكبير والقارب الصغير فإن ذلك يتعلق بذكريات طفوليّة تخص سرير المهد داخل غرفة والديها. هذا هو التفسير الذي وصل إليه لافورك Laforgue عبر منهج التداعي.

ويشير الحلم التالي إلى العقدة الأخويّة Complexe fraternel التي تتبدى، بوضوح كامل، في حلم فتاة تراءى لها أنها كانت تتنزه داخل مدينة حيث كانت الشوارع مزدحمة، حيث تصف حلمها قائلة:" *كنت أقول لنفسي هذه هي الحرب التي ستبدأ، أو بالأحرى التي ستستمر، وذلك لأن السلام لم يكن إلا حلما. ولم أكن قادرة على التحمل، ثم سألت نفسي ما إذا كان أخي قد انصرف إلى الحرب*" .

فنشوب الحرب يتطلب دعوة أخيها إلى الجنديّة، وهو الذي يحظى بالدلال منذ اللحظة التي وجد فيها في هذا العالم. أما الفتاة الحالمة فكانت محرومة من، وتعاني من خبرات طفوليّة شاقة مع أخيها حيث كانت تتعرض لهجماته بصورة دائمة: **فهي في الحلم تجدد الحرب وذلك من أجل التخلص من أخيها.**

التأويل والتنكّر: Interprétation et déguisement

يشبه تفسير الحلم، على الطريقة الفرويديّة، قراءة الخطوط الهيروغليفية. ففي الأمثلة التي سقناها، حتى هذه اللحظة، يبدو لنا أنه لمن السهولة بمكان أن نقرأ المحتوى الكامن للحلم وفقا لصورة المحتوى الظاهر المعلن. **أما في الأحلام المعقدة فيأخذ المضمون المعلن صيغة تَنَكّر بعيد المدى وصورة مزيفه للمضمون اللاشعوري**، ويتطلب تفسير مثل هذه الأحلام المركبة وتحديد عملياتها طاقة كبيرة. يصف التحليل النفسي هذه العمليات بمفاهيم مثل التكثيف Condensation، والإزاحة Deplacement، والترميز Symbolisation، والدراميّة Dramatisation، وتأخذ هذه المفاهيم صيغة عمليات لاشعوريّة تترجم نشاطات لاشعوريّة، وهي توجد في أصل بنيّة المظاهر المَرَضيَّه العصابيّة.

التكثيف Condensation:

يفوق المضمون الخفي للحلم مظهره من حيث الغنى. وبالتالي فإن المحلل لا يستطيع ابدا أن يستنفذ الصعوبات التي توجد في داخل الحلم. لقد ادرك بينيه Binet إلى أي حدّ يكون التفكير عن طريق الصور محدودا بالقياس إلى التفكير الذي يعتمد على المفاهيم، حيث يقول عبارته المشهورة: ***يفكر المرء جيدا فيما بعد الصورة.*** ويمكن لهذه المقولة أن توظف في مجال الأحلام ، فهي تشير إلى

غزارة المعطيات الرمزيّة وذلك بالقياس إلى الصور الحلميّة الخام: **فالحلم المعلن هو ترجمة مختصرة للمحتوى اللاشعوري.** وهنا يستخدم فرويد مفهوم التَّحَدُّد التضافري Surdetermination (تحدد سلوك ما بدوافع مختلفة) ليشير إلى طاقة المادة الحلميّة التي يمكنها أن تترجم عدة عناصر خفيّة K وأن تجسد موضوعات لاشعوريّة متعددة.

ويمكن لهذا النموذج الحلمي، المأخوذ من فرانك Frank ، أن يكون مثالا جيدا لعمليّة التكثيف: *حلمت سيدة أنها كانت تتنزه مع صديقتها في الشارع، وإذ بها تتوقف أمام إحد المحلات التجاريّة لمشاهدة القبعات المعروضة، ثم تدخل وتشتري قبعة سوداء.* أكدت السيدة لمحللها أنه سبق لها أن شاهدت هذه القبعات واقعيا، ولكنها لم تشتر أيا منها، وكان زوجها في هذا اليوم يعاني من المرض، وكانت قلقة عليه، وفي أثناءها قدمت صَديقتها تبحث عنها، وكانت راغبة حقا في الترويح عن نفسها عبر نزهة قصيرة. وأثناء النزهة جرى الحديث بينهما عن رجل كانت تعرفه قبل زواجها، وكانت تحبه جدا، لقد بدا لها أنه لمن المستحيل بمكان أن تفكر بالزواج منه الآن، وهو رجل ميسور. أما فيما يتعلق بالقبعة: لقد أعلنت الحالمة أنها كانت فعلا ترغب بشراء واحدة، ولكن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الحالة الماديّة المتردية لزوجها.

إن شراء القبعة السوداء يشكل هنا مفتاح الحلم: فشراء قبعة سوداء تستعمل أثناء المآتم كان قد حدد بتأثير رغبة ثلاثيّة: موت الزوج، الرغبة في

الزواج من الرجل الذي تحبه، وأخيرا الرغبة في الحصول على المال. وهذا يعني أن صورة القبعة كانت تحديدا متضافرا لعوامل مختلفة Surdétermination.

تستند عمليّة التكثيف إلى عنصرين أساسيين حيث يتبدى المضمون المستتر داخل الحلم الظاهر. ويشبه هذا الواقع حال شخصين توجد لديهما مشاعر متشابهة (غيرة، سوء نيّة) هذه المشاعر تتبدى في صورة مركبة تبدو في الحلم. وهذا يعني أن التكثيف يؤدي إلى تمرير مجموعة من الميول بعيدا عن الرقابة الشعوريّة وذلك عندما يتم ترجمة هذه الميول إلى صور هي بالضرورة نتاج لنزعات أخرى.

الإزاحة Déplacement:

تحدث هذه العمليّة عندما يتم استبدال الموضوع الخاص بنزعة ما بموضوع آخر. وتلك هي أهم عمليّة تهيمن على مجال الديناميّة اللاشعورية. تسمح هذه العمليّة لبعض العناصر المكبوتة أن تَحول فعاليتها إلى صيغة جديدة أكثر قدرة على التكيف. ويشمل ازاحة الرغبات والمرفوضات اشكال المعاناة التي ترتبط بردود الأفعال الخاصة بعقدة الإحساس بالذنب، وغالبا ما تشكّل هذه العمليّة الأساس الحقيقي للتوازن النفسي عند الأفراد.

ويستند فرويد إلى صورة هزليّة لرسم الملامح العامة لعمليّة

الإزاحة المستخدمة من قبل الوعي اليقظ: اتُهِم بيطار القريّة (حذّاء الخيول) بجريمة الخيانة الكبرى، وبما أنه لا يوجد بيطار آخر في القرية، قررت المحكمة إعدام واحد من الخياطين الثلاثة في القرية.

هذا ويمكن لعمليّة الإزاحة أن تأخذ موضوعا جديدا كما في المثال السابق أو أن تأخذ اتجاها مجانسا. وتلك هي حالة الصياد الذي كان يصطاد الطرائد الكبرى وبتأثير بعض الظروف اتجه إلى صيد الحجل. ويعني هذا أن نزعته قد تحولت إلى موضوع جديد، وأن هناك ظروفا جديدة مثل الزواج والصحة أو المرض منعته من ممارسة نشاطه المعهود. فالرغبة الاوليّة قد تستبدل برغبة أخرى مجانسة لها. ويمكن ملاحظة الأمر نفسه في مستوى الرهابات العصابيّة، ولا سيّما رهاب الخوف من الحيوانات، الذي يتعرض لعمليّة إزاحة فيحل حيوان محل آخر بوصفه موضوعا للرهاب.

ويلاحظ على مستوى الحلم، والميول اللاشعورية، أن التحويل يلعب دورا كبيرا في مخادعة الرقابة الشعوريّة. إذ يمكن لأشياء غير معنيّة أن ترهب صاحب الحلم، وأن تثير فيه مخاوف حقيقيّة وذلك لأنها استبدلت بموضوعات أخرى قادرة على بث الخوف والقلق. ففي الحلم الذي أشرنا إليه سابقا، الخاص بعمليّة خنق الكلب الابيض، نلاحظ أن الحقد الذي تكنّه السلفة تجاه سلفتها قد أخذ موضوعا آخر وهو الكلب الذي لا يجانس الموضوع الأساسي إلا في مستوى التداعي. ويمكن في هذا السياق أن يعزى لعمليّة التحويل نزعة الحالم إلى

إضفاء اهتماماته وإسقاطها على الآخرين[١٦] .

ومن هذا المنطلق فإن تفسير الأحلام يقوم في جانب كبير فيه على اساس إدراك الغايات الحقيقيّة، وإيجاد علاقات التحويل، وتحليل التكثيف، وذلك لأن التكثيف والتحويل يشكلان العمليّة التي تسهم بالدرجة الأولى في بناء التشوهات واللاتماسك الذي يتبدى في الأحلام.

الدراماتيّة Dramatisation :

يشير مفهوم الدراماتيّة إلى الحالة التي يترجم فيها ظاهر الحلم وضعيّة، أو فعل، أو أفكار مجردة تتطلب إلى صور دراميّة. فالتملك على سبيل المثال يترجم في صورة حالة فيزيائيّة قوامها: أن يجلس المرء على شيء ما ويسيطر عليه. قد يقول واحد من الناس لنفسه"*إن النضال من أجل هذه الحياة لا يستحق كل هذا العناء* " وفي المساء يرى هذا الشخص في حلمه: ***خنفساء تتسلق شباك النافذة وعندما تصل إلى أعلى نقطة فيه تسقط ثم تعاود الصعود***. ومثال ذلك أن أحد الكتاب يعتقد أنه يجب عليه أن يصحح بعض العبارات في مقالة له وفي المساء يحلم

---

[١٦] تعد النزعة الإسقاطيّة، التي نسقط بموجبها على الآخرين افكارنا واهتماماتنا عمليّة لاشعوريّة، على درجة عالية من الأهمية إلى درجة أنه يجب إعطائها تسميّة خاصة. حيث يطلق عليها آليّة الإسقاط Mécanisme de projection وهي لا تتدخل من أجل تكوين الحلم فحسب بل في تشكيل الأعراض العصابيّة، ويمكنها أن تفسر أيضا بعض سماتها. فالمضطهد يسقط على الآخرين لومه وذلك بطريقة لاشعورية.

أنه يصقل قطعة من الخشب.

تمارس الدراما تأثيرا اصطفائيا في المواد المستخدمة داخل بنيّة الحلم الظاهر، وهي تخضع لتحديات صريحة، إذ لا يمكن التعبير عن كل شيء عبر الصور. وبالتالي فإن الطريقة التي يعبر فيها عن العلاقات المنطقيّة، في داخل الحلم، تتغاير مع تغاير الأفراد؛ وأحيانا تبدو في صورة عمليّة تنطوي على عدة صور في آن واحد، حيث تتجلى العلاقات السببيّة في تعاقب هذه العناصر نفسها. وهنا يجب أن تتوافر الحكمة الكبيرة والدرايّة الشاملة من أجل تفسير كل هذه العلاقات السببيّة بما فيها من تعارضات وتناقضات.

رمزيّة الأحلام Symbolisme des rêves:

الرمز شيء أو تصور ما، يأخذ مكان شيء أو تصور آخر، لكونه مشابها له، أو لأنه يرتبط به بعلاقة ما، وهو في ذلك يقدم دلالة ليست له في الأصل. ولكن توجد في أغلب الحالات روابط محدودة تربط الرمز بالمرموز إليه. على سبيل المثال: **حفنة من تراب الوطن تمثل بالنسبة للمغترب رمز الوطن البعيد.**

لقد بينت تجارب المحللين أن صور الأحلام تمثل عددا كبيرا من الرموز الخاصة الكامنة، واستطاعوا من خلال هذه التجارب تحديد مجموعة من الرموز التي تشير إلى عدد كبير من الصور؛ حيث تشكّل هذه الرمزيّة وسيلة لاشعوريّة من أجل التَنَكّر وتجاوز

حدود الرقابة الشعورية.

هناك عدد من الرموز النموذجيّة، حيث تتجلى السلطة الأبويّة، أو الأموميّة غالبا، في رمزيّة صورة ملك أو أمير. ويمكن للنظام الرمزي للأب أن يأخذ أشكالا متعددة مثل: ملك، أو رئيس. وقد يأخذ صور حيوانات مقتدره كاسره مثل: الأسد، والصقر، والثور. **فالحلم الذي يهاجمنا فيه صقر يشير إلى هيمنة أبويّة وهو يرمز إلى عنصر القهر الذي يمارسه الأب، كما يمكنه أن يمثل الرغبات الأوديبية، ولكن غالبا ما يأخذ الأب المخيف صورة ثورهائج.** وهناك أحلام كثيرة من هذا النوع تقرع أحلام هؤلاء الأشخاص الذين يشعرون بمكانتهم الدونيّة تجاه آبائهم.

تنظر المرأة إلى الذكورة في تجلياتها الرمزيّة العدوانيه ذات الطابع العدواني ، حيث تأخذ الذكورة رمزيّة الأدوات القاطعة والحادة. **أما الأنوثة فتأخذ رمزيّة سلبيّة عند الذكور، إذ غالبا ما تأخذ صورة: مادة مثقوبة، أو قناة، أو حفرة، أو كهف، أو قارب ؛ وقد يرمز لها بصورة العنكبوت التي تمثل الأم المخيفة التي تسجن طفلها داخل حلقات سيطرتها.**

هذا ويرمز إلى الولادة، وبشكل منتظم، بإنبثاق الماء، حيث يتم الغوص في الماء أو الخروج منه، وهذا يشير إلى حمل أو ولادة؛ **أما الموت فيرمز له بالرحيل.**

لا يوجد في نيتنا أن نذكر جمع الرموز التي يشير إليها فرويد في مجال *علم الأحلام Science des rêves*. ولكن لا بد في هذا السياق من الإشارة إلى نموذجين من الرموز، وهما جديران بالملاحظة:

فالتصورات اللاشعوريّة المحددة يمكن أن تترجم، وحسب الحالة، إلى صور رمزيّة مختلفة جدا هذا من جهة ؛ وهناك حريّة واسعة جدا في مجال رمزيّة الحلم،إذ توجد رموز لا حصر لها يمكنها أن تشير إلى شيء واحد، على سبيل المثال، يرمز للأب برموز مثل: الملك، والأسد، والصقر، والثور؛ وهذه الرموز تشكّل ما يسمى بمنظومة الرموز الأبويّة. وعلى خلاف ذلك يمكن لرمز واحد أن يشير إلى منظومة من الدلالات التي يمكنها أن تتوافق مع عناصر لاشعوريّة ذات أحوال مختلفة، فالقارب يمكن أن يشير إلى مهد الطفولة أو إلى الطبيعة الأنثوية.

إن تحليل الرموز وتفسيرها أمر يتطلب أناة وصبرا: فالرمز المنعزل لا يمكنه أن يشير إلى أي مفتاح للدخول إلى دهاليز اللاشعور. فالمنهج الرمزي لا يشابه في أيّة حال من الأحوال منهج التداعي. يقول فرويد: *"إن التقنيّة التي تستند إلى معرفة الرموز لا يمكنها أن تحل محل هذه التي ترتكز إلى التداعي، ولا يمكن أن تقاس بها. فهي تتكامل مع الأخيرة وتزودها بمعطيات هامة* ". تشير هذه الخلاصات بما فيه الكفايّة إلى تعقيد العلاقات القائمة بين الشعور وبين اللاشعور في دائرة الحلم. **فالحلم، من وجهة نظر، ليس شيئا آخر سوى نتاج عمل يهدف إلى فعل التكثيف والإحالة والدراما والترميز**، وذلك دون أن نتوغل في إحصاء الفعاليات الجانبيّة التي تعمل على توحيد المعطيات المختلفة في كلّ متكامل داخل الحلم، والتي تعمل على تنظيم المواد

الحلميّة داخل نسق لا يمكن فهمه بسهولة. هذا ويمكن القول بصورة أخرى أن الحلم هو عمل بنائي يعبر عن الأفكار الكامنة في مجاهل اللاشعور ".

ويمكن للرغبات العاطفيّة أن تجد ترجمة لها داخل المضمون المعلن للحلم، وذلك عبر صور ورموز وكيفيات مناقضة تماما لمبدأ تحقيق هذه الرغبات. فعمليات الحلم تجعل المضمون الخفي للحلم غير مفهوم ومقنع بشكل كامل، ومع ذلك فإن هذه العمليات تكشف عن الدلالة الحقيقيّة وفقا لمبدأ التداعي.

الأحلام والنكته:

ساهمت الدراسات، التي أجريت على الحلم في صيغته الطبيعيّة غير المَرَضيَّه، في الإرتقاء بالتحليل النفسي إلى مستوى علم اللاشعور. كتب فرويد يعبر عن ذلك بقوله: إذا كانت تفسيرات الحلم الطبيعي تقتضي اللجوء إلى فرضيات الحلم المعهوده مثل: كَبْت الرغبات الغريزيّة، والتحويلات، والإتفاقات ومختلف الأنظمة النفسيّة التي توجد بين الشعور وبين اللاشعور، فإن التحليل النفسي ليس علما متمما لذعلم النفس المرضي بل يشكّل ومن هذا الخندق القاعدة الأساسيّة لعلم نفس جديد يكون ضروريا لفهم الأوضاع الطبيعيّة أيضا. حيث يمكن اختبار فرضياته وتعميم نتائجه في مجالات أخرى من الحياة النفسيّة والعقليّة.

وفي سياق التفرعات المباشرة لعلم "الأحلام" تجدر الإشارة إلى

كتيب *فرويد الصغير النكتة في علاقتها مع اللاشعور* *Le mot d'ésprit dans ses rapports avec l'inconscient* عام ١٩٠٥. حيث يحاول فرويد في إطار هذا الكتيب أن يعالج ومن خلال الرسوم البيانيّة الخاصة بالحلم توظيفات النكتة. ونجد في هذا الخصوص أن هذه التوظيفات مسالمة وتهدف إلى تحقيق اللذة. ولكن بعض هذه الكلمات يمتلك على وظيفة أكثر تحديدا. فالكلمات الفاحشة والعنيفة تعبر عند مستخدمها عن أفكار لا يستطيع أن يعبر عنها بصورة مباشرة.

وعندما تصدر عنا نكتة فإن هذه النكتة لا تصدر عن اللاشعور وليست نتاجا لعمليات لاشعوريّة بالضرورة. ويرى فرويد في اللذة التي يشعر بها مستمع ما نوعا من المشاركة بين لاشعورين.

والحق يقال أننا عندما نضحك لسماعنا نكتة أو طرفة فإننا نجهل ما يضحكنا وسرعان ما نميز دلالة النكتة الخاصة بالفكرة التي تسيرها. وبعبارة أخرى تكمن دلالة النكتة داخل اللاشعور.

وتشكل الحياة الخياليّة بوابة منهجيّة غنيّة لدراسة الحلم. لقد أدرك فرويد وذلك بصدد معالجته لروايّة جنسين Jensen **غراديفا**[١٧] *Gradiva* أن الأحلام التي رسمها الكاتب قابلة للتفسير نفسه الذي

---

[١٧] غراديفا: روايّة للكاتب الألماني فيلهلم نيتسن المولود عام ١٨٣٧، نشرت عام ١٩٠٣، موضوعها عالم آثار أحب فتاة إغريقيّة جميلة في المتحف الفاتيكاني. ويمكن العودة إلى كتاب فرويد النكته والحلم في غراديفا الذي ترجم إلى الفرنسيّة بالصيغة التاليّة: S.Freud: *Delire et reves dans la Gravadia de Jensen*, Paris 1907, (Tad N.R.F).

تخضع له الأحلام الحقيقية. هذا ويلاحظ أن النشاط الخلاق للشاعر يدخل العمليات اللاشعوريّة نفسها في اللعبة الشعريّة، وهي التي تلعب دورا كبيرا في بناء الحلم وفي تشكيل الأعراض المَرَضيّه أيضا.

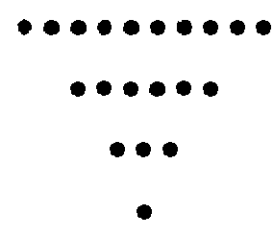

الحياة العقليّة واللاشعور

الفصل الثالث

استعرضنا، في الفصول السابقة، اكتشافات فرويد في مجال الصراعات النفسية، وأهميّة الرغبات الجنسية، والعلاقة بين الأعراض المَرَضيَّه وبين الكَبْت واللاشعور.

ويترتب علينا هنا أن نستطلع بعض الجوانب الأخرى، إذا أردنا حقا أن نرسم صورة دقيقة لجانب الحياة اللاشعوريّة من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي. والأسئلة التي تلقي بكلكلها هنا هي: كيف يمكن لنا أن نميز اللاشعور عن النزعات والذكريات التي لا توجد حاليا في ساحة الشعور؟ وكيف يمكن لهذه النزعات والذكريات أن تسجل حضورها بسهولة عند الضرورة؟ وكيف يمكن أن نميزها عن

اللاشعور الذي يعزى إلى عمليّة الكبْت؟ وما جوهر وأصل العمليات الكابتة؟ وهل هي عمليات شعوريّة أو لاشعوريّة؟

سننطلق من منهجيّة التأني في الإجابة عن هذه الأسئلة، ولمَ التسرع إذا كان فرويد نفسه لم يطرحها بسرعة، لقد تطورت تصوراته وعقائده العلميّة تدريجيا خلال أعماله الأولى مثل: الأنا والهو Dès Moi et Soi ١٩٢٣، ثم الكَبْت والأعراض المَرَضيَّه والقلق L'Inhibition،Symptôme ، Angoisse، ١٩٢٦؛ ويلاحظ هنا أن فرويد كان ينظر إلى اللاشعور في صيغته الوصفيّة بدرجة أكبر من صيغته الجوهريّة، وهو في هذا الاتجاه يوافق على تعدديّة العمليات اللاشعوريّة. وقد قدر له أن يغير مرارا مخططه الأولي الخاص بالآليّة النفسيّة إذ يرى في الكَبْت أكثر من مجرد ردود أفعال عامة للدوافع فهي تنطوي على عمليات دفاعيّة. والسؤال هنا هل بقي فرويد وفيّا لاستنتاجاته الأولى؟ نحن لا نعتقد ذلك.

يُكرّس هذا الفصل لتحديد الكيفيّة التي ينظر فيها فرويد إلى بنيّة الحياة النفسيّة، ويسعى إلى تحديد المؤشرات الخاصة بالتصورات الفرويديّة الأول ، ولا سيّما، هذه التي تتوافق مع ما يسمى أحيانا: ***العصر البطولي*** لمدرسة التحليل النفسي. وسنعمل على تقديم صورة التعديلات التي أجريت على النظريّة، وسنحدد اتجاهات تطور العقيدة الفرويديّة. وأخيرا سنسجل بعض الملاحظات حول تطور العلاج بالتحليل النفسي.

أولا: التصورات الأولى:

يؤكد فرويد في كتابه ***مقدمة في التحليل النفسي*** ***Introduction à la psychanalyse*** (١٩١٦-١٩١٨) على **القدرة الكليّة للنشاط اللاشعوري** وللتأثير السببي الذي يمارسه على الشعور وهو بذلك ينظر إلى **اللاشعور بوصفه الحقيقة الجوهريّة للحياة النفسية**. ومن جهة أخرى يسعى فرويد إلى تحديد دقيق لهويّة اللاشعور والكبْت، فاللاشعور هو المكبوت. وفي هذا الصدد كتب جونس Jones يقول معبرا عن رأي فرويد: "***يمثل اللاشعور المنطقة النفسيّة التي توجد فيها العناصر النفسيّة المكبوتة***"

اللاشعور وما قبل الشعور L'inconscient et préconscient:

يميز فرويد بدقة بين العمليات اللاشعوريّة وبين العمليات القبلشعوريّة Préconscient التي يمكنها عند الضرورة أن تكون شعوريّة بسهولة. هذا وتشير التجارب العديدة أنه يمكن للعناصر الذهنيّة العديدة من: أفكار، وصور، وذكريات، أن تكون شعوريّة كما يمكنها أن تكون لاشعوريّة أو قبلشعوريّة: يمكن للفرد أن يفكر في هذا المنظر، ثم بعد ذلك يمكنه أن يركز انتباهه في مكان آخر. فالحالات الشعوريّة عابرة، ولا يمكن للشعور أن يستعرض الحقل النفسي برمته

في لحظة واحدة. يوجد إذن جانب من النفس يكون أحيانا شعوريا وأحيانا أخرى لاشعوريا. ومن هذا المنطلق فإن فرويد يطلق على هذا الجانب الذي يمكنه أن يصبح شعوريا مفهوم قبلشعوري Préconscient.

يمكن للحالات قبلشعوريّة أن تّستدعي وفقا للعبة التصورات الطبيعيّة. وهي حالات مختلفة في طبيعتها عن اللاشعور الدينامي الذي يستعصي على الاستدعاء أو الظهور في ساحة الشعور إلا بتوسط عمليات خاصة مثل التنويم المغناطيسي والتحليل النفسي. فالظواهر النفسيّة المستترة، أي اللاشعوريّة بالمعنى الوصفي للكلمة وليس بالمعنى الدينامي، هي ظواهر نفسيّة *قبلشعوريّة* Préconscient. ونحن نوظف دائما كلمة *اللاشعوري* للدلالة على الظواهر النفسيّة المكبوتة.

الميول واللاشعور Tendances et inconscient:

ماذا يعني مفهوم الميول اللاشعوريّة وذلك في إطار هذه الظروف؟ أو ماذا نعني بمفهوم الميول المكبوتة؟ وهو تعبير غالبا ما يوظفه فرويد. فهل نعني بالميول Tendances المعنى ذاته الخاص بمفهوم الدوافع Pulsions اللاشعورية؟ هل يمكن التمييز وفي هذا الخصوص بين ما قبلشعور وبين اللاشعور؟

يقول فرويد نفسه ـ متفقا في ذلك مع علم النفس التقليدي ـ إن

التعارض بين الشعور وبين اللاشعور، فيما يخص الميول، أمر مجرد من المعنى. هذا وعندما يستخدم علماء النفس مفهوم الميول فهم ينظرون إليه كمفهوم سهل الإستخدام وليس كتعبير عن حقيقة. هذا ويعترف فرويد في كتابه "*ملاحظات حول مفهوم اللاشعور في التحليل النفسي*[١٨] *Quelques observations sur le concept de l' inconscience psychanalyse en (١٩١٢)* ، أن مفهوم "الميل اللاشعوري" ليس إلا من قبيل الحريّة اللغويّة الساذجه.

يكون الميل لاشعوريا عندما تكون عناصره النفسيّة لاشعوريّة، ويمكن للعناصر النفسيّة المعنيّة أن تكون: فعلا، أو فكرة، أو ذكرى. وهنا يجب أن نأخذ بعين الإعتبار طبيعة هذه العناصر التي قد تكون لاشعوريّة أو قبلشعوريّة. لقد حاول فرويد أن يبدد هذا الغموض الذي يلف هذه المسألة. ولقد تحدثنا نحن في الفصول السابقة تارة عن الدوافع وأحيانا عن الذكريات المكبوتة ؛ إذ يقال عن الميل بأنه مكبوت، وذلك لأنه يستطيع الظهور، عبر صورة ما، أو إحساس، أو فكرة، في داخل مساحة الشعور، وهذا يعني أن المواد اللاشعوريّة تتكون من صور أو أحاسيس أو أفكار.

---

(١٨) S.Freud:*Quelques observations sur le concept de l'inconscient en psychanalys* ,Trad. dans le recueil de texetes publiés par la N.R.F., sous le titre Métapsychologique

الرقابة La censure:

كيف يصور لنا فرويد من جهة أخرى العمليات الكابتة؟ ينظر فرويد إلى هذه العمليات من خلال ممارستها لدور الرقابة. فالغرائز الجنسيّة، على سبيل المثال، ولا سيّما مكوناتها الطفليّة، تخضع لمبدأ اللذة بشكل جوهري، وهي تنزع إلى الإشباع. ولكن تدريجيا وتحت تأثير الوضعيّة الخارجيّة، وتأثير المنع الوالدي، تتشكّل غرائز الأنا Instincts du moi. وهي تتشكّل وفقا لمبدأ الواقع، ثم تأخذ فيما بعد طابعا أخلاقيا يمتلك القوة ومنه تصدر ردود فعل الدفاع والكبت. وتعد وظيفة الرقابة Censure هذه في أصل الصراعات الطفوليّة، التي تشكّل باستمرارها مصدرا للأمراض العصابيّة ، كما تشكّل في الوقت نفسه نمط السلوك الراشد.

والسؤال هنا هل تعد عمليّة الرقابة هذه شعوريّة أم لا شعورية؟ لم يكن فرويد واضحا فيما يتعلق بهذه المسألة قبل عام ١٩٢٠. ويبدو أنه كان يضعها بين مجالي اللاشعور وما قبل اللاشعور ؛ فهو يشبه الآليّة النفسيّة للرقابة بغرفة انتظار توجد فيها نزعات Tendance مختلفه وكأنها في حالة انتظار. ويوجد إلى جانب هذه الغرفة غرفة أخرى يقيم فيه الشعور، ويوجد بين الغرفتين حارس لا يسمح بالدخول: إلا للنزعات التي تحظى بموافقة الشعور، أما النزعات الأخرى فهي ضحيّة هذا الحاجز وهي تمثل هنا النزعات المكبوتة. ويضاف إلى

ذلك أن النزعات التي يسمح لها الحارس بالمرور هي بالضرورة نزعات قبلشعوريّة وذلك قبل أن تكون شعوريّة، وهذا يعني أن الرقابة هنا ليست شعوريّة. وبالتالي فإن هذه الرقابة لا يمكن إزالتها إلا بمساعدة خارجيّة، وهذا يعني أن فرويد يعتقد بوجود قوة لاشعوريّة ثالثة، غير مكبوتة، ولكنها قادرة على إحداث الكَبْت.

ثانيا. تعديلات خاصة بالتصورات الأولى:

أجرى فرويد بعض التعديلات في تصوراته الأوليّة، وبالأحرى فإنه دفع هذه التصورات إلى آفاق أكثر رحابة واتساعا. ويمكن العثور على هذه التعديلات في كتابه *ما فوق مبدأ اللذة (١٩٢٠)* *Au de la du principe du plaisir*. وعلى الأخص في كتابه الأنا والهو ١٩٢٣[١٩] Dès Moi et Soi.

في البدايّة يمكن القول إن التقدم الحاصل في تقنيات التحليل من

---

[١٩] تم الجمع بين الكتابين في كتابه *محاولة التحليل النفسي عام* *Essais de psychanalyse 1926*، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى: *الكَبْت والعرض والقلق* في عام ١٩٢٦. *Inbibition symptomes angoisse*، ثم في كتابه *محاضرات جديدة في التحليل النفسي* في عام ١٩٣٢ *Nouvelles conferences sur la psychanalyse*، وأخيرا كتابه الأخير الذي بدأه في تموز عام ١٩٣٨ ولم ينجزه بصورته النهائية وهو: *موجز التحليل النفسي* *Abrégé de psychanalyse*.

جهة، والدراسة العميقة للحصر Angoisse[٢٠] من جهة أخرى، قادا فرويد إلى الاعتقاد بأن أدوات الكَبْت ولحظاته غير شعوريّة. وعلى خلاف ما كان يعتقده، في المراحل الأولى، تعدّ هذه العمليات مسؤولة عن المظاهر المَرَضيَّه العصابيّة بدرجة أكبر من مسؤولة الدوافع الغريزيّة نفسها. وهنا يشير فرويد إلى أهميّة دور الأنا ومبدأ الواقع بوصفهما عمليات ذهنيّة يمكنها أن تكون في أصل آليّة الدفاع Mécanisme de défense.

لقد عمل فرويد، ومن جديد، على إعادة النظر في صورة الجهاز النفسي، وفي تأملاته الخاصة بجوهر الحياة النفسية. وفي هذا السياق فإن دلالة المفهوم الخاص باللاشعور هي وحدها التي تأخذ شكلا نهائيا.

الحصر Angoisse:

كان فرويد متغايرا في تفسيره المتواصل للحصر العصابي Angoisse Névrotique [٢١] . في البدايّة، كان ينظر إلى

---

[٢٠] الحصر :Angoisse خوف داخلي يتميز بدرجة عاليّة من الشدة دون تحديد لموضوعه الخارجي. وهو أكثر غموضا وخطرا من مفهوم القلق Anxiete حيث يترافق بمظاهر فيزيولوجيّة، وبعبارة أخرى هو إنفعال مرضي تحركه فكرة غامضة ولكنها آسرة عن خطر مجهول عن شر متوقع وخيالي (المترجم).

[٢١] انظر في هذا المجال كتاب بوتونييه الحصر. Favez Boutonier ***l'Angoise*** حيث توجد تفصيلات جيدة في الجزء الأول الفصل الرابع وهو بعنوان: نظرات التحليل النفسي.

عصاب الحصر بوصفه عصابا مؤقتا، ولكنه فيما بعد وصفه باسم هيستيريا الحصر Hystérie d' Angoisse، وهو عصاب يجانس في تفسيره الهيستيريا أو العصاب الوسواسي Névrose obsessionnel. والنقطة التي تبقى في دائرة الغموض هنا هي: كيف يحدث أن يُترجم المكبوت إلى حالة حصر ؟ أكد فرويد في عام ١٩٢٦ على أن الحصر يشكّل انعكاسا خوافيا للأنا Peur du moi أو للشعور بالخطر. إنه لمن المؤكد أن الأنا Le moi يجد نفسه إزاء خطر داخلي، وذلك يكفي للتمييز بين الحصر العصابي وبين الحصر الموضوعي الذي ينجم عن حقيقة خارجية. ولكن هل يقوم هذا الخطر ببساطة كما هو متوقع في صيغة قسريّة عنيفة لنزعات غريزيّة من نسق جنسي؟

لقد قادت الممارسات التحليليّة فرويد إلى نتيجتين هامتين: أولا يلاحظ أن الأنا لا يقاوم النزعات الغريزيّة فحسب بل العنف الذي تمارسه الرقابة. وتأتي حالات الحصر كنتاج لحالة الضعف التي يعاني منها الأنا. حيث يقف خائفا أمام الهجمات العنيفة الصادرة عن اللاشعور، وهو في هذه الحالة من الضعف يناشد الأنا الأعلى Le sur moi ! . فليس هو الليبيدو Libido الذي يُترجم بشكل مباشر إلى حصر. فالحصر كما يقول فرويد يترجم حضور الأنا الأعلى بدرجة أكبر من ترجمته لمعطيات الليبيدو، وهو يعكس إلى حدّ كبير ردود فعل الأنا تجاه حضور الأنا الأعلى. وهذا يعني أن الكَبْت ليس مسؤولا عن الحصر، ولا يسببه، بل الحصر Angoise هو الذي يستدعي الكَبْت

Refoulement ويناشده.

تتمثل النتيجة الثانيّة التي يصل إليها فرويد حول الدوافع العدوانيّة Pulsions agressives في أن الأنا الأعلى هنا يكون قاسيا تجاه الأنا. فالحصر كما يحدده فرويد، هو إشارة إنذار خطر نفسي ناجم عن صراع ينشأ من ضعف الأنا، وهو ضعف يعانيه أثناء مواجهته لاندفاعات داخليّة قمعيّة محاولا أن يمنعها من التحقق ولا سيّما الدوافع الجنسيّة والعدوانيّة منها.

آليات الدفاع Les mécanismes de defense:

اتجه اهتمام فرويد لاحقا إلى دراسة آليات دفاع الأنا، والإجراءات التي يعتمدها في صراعاته والتي يمكن أن تدفع بالفرد إلى دائرة الأمراض العصابية. ويشير الكَبْت[٢٢] في هذا الاتجاه إلى آليات الدفاع.

ويمكن أن نذكر مجموعة من العمليات الدفاعيّة: ومنها النكوص Regression، والإسقاط Projection، ثم التسامي Sublimation، والتحويل Deplacement، وتشكّل هذه العمليات في مجموعها، بالإضافة

---

[٢٢] يميز فرويد في مسار تأملاته بين الكبْت الأصلي القديم، والكَبْت الذي يحدث بوصفه آليّة دفاعيّة وخاصة في حالات منع بعض الدوافع من الدخول إلى ساحة الشعور وذلك في بعض المراحل الهامة من مراحل حياة الفرد.

إلى الكَبْت، الأدوات التي يمتلكها الأنا Le moi، ويوظفها في صراعه ضد الاندفاعات المَرَضيَّه للغرائز والميول.

إن أداء هذه العمليات لوظائفها مرهون، إلى حدّ كبير، ليس بقوة أو ضعف الغرائز والميول والأنا الأعلى Le Surmoi فحسب، بل بقوة الأنا وضعفه ايضا. ويأخذ الأنا في هذا السياق موقعه بالإستناد إلى جملة من الظروف مثل: الخوف من الأنا الأعلى، والصعوبات الخارجيّة، والخوف من الاندفاعات الغريزيّة إلخ... ويمكن الإشارة، في هذا الصدد، إلى أن دراسة هذه العمليات الدفاعيّة، إلى جانب الكَبْت، سمحت لفرويد بإدراك أفضل لعمليّة تشكّل الصراعات والعقد عند الصغار الذين لم يتشكّل أناهم الأعلى بعد. وفرويد هنا يقدر بأهميّة كبيره دور الأنا بوصفه مصدرا للعمليات الدفاعية.

الهو والأنا والأنا الأعلى Le Ça, Le Moi, le Surmoi:

تترابط هذه المفاهيم وتتكامل، ويتضح ذلك من خلال مخطط الجهاز النفسي الذي يميز فيه فرويد بين هذه الجوانب، ويحدد طبيعة عمل كل منها. **فالهو Le Ça يشتمل على مجموعة من الغرائز الأولية[٢٣] ويشتمل أيضا على جميع العناصر المكبوتة ذات الطابع العدواني والجنسي.**

---

[٢٣] نحن لا نركز هنا على التأملات التي قادت فرويد، بعد مسيرة طويلة، إلى أن يقلص الدوافع الإنسانيه إلى غرائز الحياة Eros وغرائز الموت .Instinct de mort

أما الأنا Le moi فيشتمل على النظام الشعوري الإدراكي وهو يمتلك على إرادة الحركات الإرادية. وهو يشمل أيضا العمليات القبلشعوريّة، ويشكّل مركز العمليات الدفاعيّة ضد الهو. وفي بعض الحالات يكون الفعل الموجه ضد الاندفاعات الغريزيّة لاشعوريا. وهذا يعني أن الانا يمتلك طبيعة وحدودا مزدوجه.

وفي النهايّة فإن الأنا الأعلى Le surmoi يعبر الأخلاق الطفليّة القديمة. ينظر فرويد في بعض نصوصه إلى الأنا الأعلى وكأنه جزء من الأنا ولكنه بالتأكيد ينظر إليه بوصفه لحظة مستقلة شعوريّة وهي *اللحظة التي تجد مدّها ومداها في التأثيرات الوالديّة الأولى*" وبالنتيجة **فإن الأنا الأعلى هذا يشكّل الوريث الحقيقي لعقدة أوديب**" ***ويمثل إشعاع الممنوعات العائليّة*** "، فهو من طبيعة ثانيّة يؤدي أعمال السهر والعنايّة والتهديد التي كان الأبوان يقومان بها سابقا ، ولا سيّما في اللحظة التي ينفصل فيها الأنا الأعلى عن الأنا أو يعارضه. ويشكّل الأنا الأعلى في النهايّة قوة ثالثة يجب على الأنا أن يأخذها بعين الاعتبار. والمهم هنا أن خبرات التحليل النفسي قد أكدت لفرويد أن الأنا الأعلى ذو طبيعة لاشعوريّة أيضا[٢٤].

---

[٢٤] تشير نتائج ودراسات علم نفس الأنا إلى البنيّة الشعوريّة للأنا الأعلى، وهذا يعني أن الأنا الأعلى شعوري في جزء كبير منه ولا شعوري في جزء بسيط منه، و يمكن من أجل المزيد من التفاصيل العودة إلى مقالة لاكاش: د.لاكاش: التحليل النفسي وبنيّة الشخصيّة، مجلة التحليل النفسي، المجلد السادس، اصدار .P.U.F، باريس، ١٩٦١. (المترجم).

التوازن النفسي: L'équilibre psychique

يمكن لهذا التصور الجديد، حول التوازن النفسي، أن يشكّل منطلقا مناسبا لبناء نظريّة في التحليل النفسي عن الحركة الديناميّة لحياة النفس الإنسانيّة. ومثل هذه النظريّة ليست صالحة لتفسير الخلل العصابي في الشخصيّة فحسب، بل يمكنها أيضا أن تفسّر لنا الاختلاف في السمات الجوهريّة للشخصية.

يمكن الحديث عادة عن صحة نفسيّة، أو توازن نفسي، عندما لا يكون هناك صراع نفسي يؤدي إلى وجود أعراض نفسيّة. وهذا التوازن لا ينفي بالتأكيد وجود أنا أعلى قادر على الفعل، ووجود نكريات وغرائز مكبوتة. ومع ذلك يمكن لنا أن نكشف، من خلال دراسة الأحلام، ومن خلال اختبارات السلوك العاطفي، ومن خلال التحليل النفسي عامة، عن بعض حالات الإضطراب النفسي مثل: التثبيت Fixation، أو بعض العقد Complexes، هذا إذ يرتبط نموذج حياة كل واحد منا وبدرجة كبيرة بمنظومة التجارب الطفليّة، وبما تنطوي عليه هذه التجارب من معاناة لاشعوريّة.

قد يعاني الفرد من حالة عصاب، وهي الحالة التي يكون فيها الأنا قد غلب على أمره بعد أن استنفد طاقاته الدفاعيّة، أو لأنه أسرف في توظيف هذه الطاقة، أو لأنه بدأ يخشى صولة الهو *Le Ça* وجولته ،أو لأنه بدأ يخاف من غضب الأنا الأعلى *Sur Moi* وسخطه.

فالتوازن النفسي مرهون إلى حدّ كبير، وقبل كل شيء، بالعادات السلوكيّة الخاصة بالأنا، وذلك إذا استطاع هذا الأنا أن يشبع الحاجات الأوليّة مع المحافظة على احترام الضرورات الخارجيّة، وتحقيق المصالحة الضروريّة مع الأنا الأعلى. ومن هذا المنطلق يترتب على الأنا أن يرضي بسلوكه ثلاثة مصادر هي: الهو، والأنا الأعلى، والواقع؛ ويتم له ذلك عندما يستطيع أن يحقق المصالحة الحقيقيّة بين هذه الجوانب الثلاثة.

وهنا يؤكد فرويد على أهميّة التسامي[٢٥] Sublimation كعامل أساسي من عوامل التوازن، وذلك يعني تحويل موضوع الميول نحو إشباعات روحيّة Spirituel أو نموذجات اجتماعيّة رفيعة المستوى.

العمليات الشعوريّة واللاشعوريّة:

ما صورة اللاشعور إذن في إطار هذه الشروط الجديدة؟ لقد دأب فرويد، إبّان المرحلة البطوليّة للتحليل النفسي، أن يصف اللاشعور وأن يميز فيه ما قبل الشعور Préconscient ، وأن ينظر إليه بوصفه منظومة من المظاهر النفسيّة والعقليّة المكبوتة. ألا نجد أنفسنا هنا في إطار جدليّة حرجة للمفهوم؟ في واقع الأمر، ومن غير أن نتخلى عن

---

[٢٥] التسامي Sublimation: أواليّة نفسيّة تدفع الكائن إلى تحويل طاقة الدوافع والميول، وخاصة الجنسيّة والعدوانيّة منها، نحو أهداف إنسانيهساميّة كالأدب والفن والموسيقا. وينظر اليوم للتسامي بوصفه عمليّة إنضاج لوظائف الأنا (المترجم) .

ملاحظات فرويد في عام ١٩١٢، التي نحن بصددها الآن، ومع تعميق هذه الملاحظات، نلاحظ أن فرويد، وبشكل تدريجي، بدأ ينظر إلى اللاشعور بوصفه ظاهرة نفسيّة ذات طابع نوعي ؛ وهو في هذا المعنى يتجاوز حدود كونه مجرد ذكريات، بل يتضمن، بالإضافة إلى ذلك عمليات خاصة بالكَبْت، وينطوي أيضا على بعض الإيعازات الصادرة عن الأنا الأعلى، التي يمكنها أن تأخذ مكانها في دائرة اللاشعور. ووفقا لذلك فإن الشعور واللاشعور يتكاملان في تحديد مسار الحياة النفسيّة للفرد، فاللاشعور ينطوي على عمليات عقليّة متعددة. وبالتالي فإن الهو Le Ça يشكّل جانبا من الأنا، ولا سيّما هذا الجانب الذي يهيمن على عمليات الدفاع. أما الأنا الأعلى Le Surmoi فينطوي أيضا على جانب لاشعوري. فنحن إذن إزاء ثلاثة جوانب أساسيّة في الشخصيّة فهل يجب علينا في هذا المقام أن نقلل من مصداقيّة مفهوم فرويد الأولي حول اللاشعور؟

يبيّن فرويد أن الدينامية النفسيّة تتبدى دائما في اتجاهين يتوافقان مع مقولتي الشعور واللاشعور، ويبيّن أيضا أنه إذا كانت جميع المكبوتات لاشعوريّة فإن ***هناك جانبا لاشعوريا لم يتعرض للكبت بصورة مسبقة***. وهنا يعلن فرويد، ومن جديد، **عن وجود منطقة لاشعوريّة ثالثة غير مكبوتة**. وهو يعلق على ذلك قائلا بأن خاصة اللاشعور هنا تفقد معناها المحدد. فهل يبرر لنا ذلك أن نستخدم بشكل إرادي التعميمات والاستنتاجات الدقيقة؟

وعلى الرغم من توصيف اللاشعور بتعدد العمليات الذهنيّة التي يتميز بها، كان فرويد يعتقد دائما أن العمليات اللاشعوريّة هي هذه التي تتوافق مع تصوراته حول العناصر النفسيّة المكبوتة، وكان في العمق وفيا لاستنتاجاته الأوليّة. ويمكن لنا أن نقرأ في كتابه ثلاث محاولات:" *ما هو مكبوت يمثل بالنسبة لنا نموذج اللاشعور*". وفي كتاباته الأخيرة ، ولا سيّما في مسار حديثه عن العناصر المكبوتة، كتب يقول: "*لقد احتفظنا لهذه المادة بتسميّة اللاشعور بصورة واضحة*". ولنأخذ نحن بهذه الصيغ المطروحة مع الاحتفاظ بالانطباعات المرنه التي تركها فرويد التي عرف كيف يوظفها في معالجته لمفهوم اللاشعور.

القسم الثالث

اللاشعور بعد فرويد

نظريات اللاشعور ما بعد الفرويدية

الفصل الأول

كان لفرويد فضل كبير في توجيه الأبحاث بطريقة جديّة إلى دراسة اللاشعور. وكان لتلامذته من منشقين ومطبقين وأصلاء دور كبير في متابعة أبحاثه، وهم جميعا، شاؤوا أم أبوا، استفادوا من التصورات الأساسيّة للمعلم.

بعد مرحلة شاقة من العزلة ، استمرت عشرة سنوات، أيقظ العلم الجديد فضول الأطباء وعلماء النفس. ومنذ عام ١٩٠٦ بدأ بلويلير Bleuler ومساعده يونغ G.G. gung بتطبيق المناهج التحليليّة في زيورخ Zurich. ومن هؤلاء العلماء يمكن أن نذكر سيمون فيرينسيزي Simon Furenczi ، والإنكليزي جونس Jones ، اللذين أخلصا في مسار أبحاثهما لعلم النفس الفرويدي.

وفي عام 1910 تأسست الجمعيّة الدوليّة للتحليل النفسي وانتخب يونغ رئيسا لهم. وضمت هذه المدرسة اسماء الفرويديين الأوائل نذكر منهم بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا: أبراهام Abraham ، وأوتو رانك Otto Rank ، وستيكيل Stekel ، وبريل Brill ، وساتش Sachs ، وبفستر Pfister، ثم تيودور Téodor، وأخيرا ألفرد آدلر Alfred Adler.

لقد عُرف فرويد بصرامته مع تلامذته، وكان دائما يتابع موضوعات نظريته الأساسيّة بطريقة بالغة الدقة والحرص، ولم يكن من السهولة أبدا أن يتخلى عن قضيّة جوهريّة بالنسبة له. وكانت هذه الصلابة وهذا التشدد، كامنان في أصل نجاح نظريته، حيث أتاحا له أن يتجاوز كثيرا من الصعاب من أجل بناء أفكاره، وترسيخ دعائم مدرسته. وبفضل هذه الشجاعة الفعليّة، والثقة بالنفس، والدقة، استطاع التحليل النفسي أن يجد له مكانا في هذا الكون.

لقد بدأت الانشقاقات تظهر، في الوقت نفسه، الذي بدأت فيه مفاهيم هذه النظريّة الجديدة بالظهور ؛ حيث يلاحظ أنه ما بين عامي ١٨٧٦-١٩١٤ بدأ مفهوم اللاشعور، الذي أخذ هيئته وتبلور في مدرسة التحليل النفسي، ينطوي على عناصر جديدة. ويجدر بنا أن نتعرّف في هذا المقام على بعض المفكرين الجدد، ولا سيّما أكثرهم شهرة في حركة التحليل النفسي. فالتغيرات التي أدخلت على الصورة الفرويديّة الأولى، بدأت بانشقاق اثنين من كبار تلامذة فرويد، وهما: آدلر Adler، ويونغ ، اللذان سيستقطبان مركزيّة اهتمامنا في هذا

الفصل. وسنعمل ، بالإضافة إلى ذلك، على تناول أفكار كل من: ميلاني كلاين Melanie Klein ، وجاك لاكانLacan ، حيث أسهمت كلاين في في دراسة الفترة ماقبل الأوديبيّة، بينما شرع لاكان بالعودة إلى فرويد عبر أبحاث أصيلة في مجال اللغة واللاشعور.[٢٦]

أولا . آدلر ومشاعر الدونية

Sentiment de l'infériorité

انفصل آدلر Adler عام ١٩٠٧ عن مدرسة التحليل النفسي، وذلك على أثر دراسة له حول الانعكاسات النفسيّة للقصور العضوي.

أحاسيس الضعف وإرادة القوة:

تتبدى أصالة آدلر في الأهميّة التي يعطيها لإرادة القوة وإحساس الدونيّة في تحديد اللاشعور. وينطلق آدلر في ذلك من الملاحظة التالية: عندما يولد فرد ما، وهو يعاني من قصور عضوي، أو ضعف بنائي، فإن إحساسه بالضعف يفجر فيه سلسلة من الفعاليات النفسيّة اللاشعوريّة، التي تهدف إلى بناء شخصيته، وتعويض القصور الذي

---

[٢٦] يؤسفنا أننا لن نستطيع في هذا الكتاب التعرض إلى بعض المحاور الهامة جدا مثل اسهامات دانييل لاكاش Daniel Lagauh أو إسهامات التحليل على مستوى الجماعة.

يعانيه، وهذا يعني أن الإحساس بالدونيّة يشكّل عاملا يدفع الفرد إلى تحقيق النمو النفسي.

ويوجه آدلر اهتمامه اللاحق حول النشاط التعويضي، ويعطيه أهميّة خاصة داخل الحياة العقليّة، وهو في الوقت نفسه، يعطي غرائز Instincts de Moi وظيفة نفسيّة حساسة، ويطلق آدلر على هذه الغرائز تسميّة غرائز امتداد الشخصيّة أوكما يسميها نيتشه إرادة القوة Volonté de puissance.

منذ اللحظة التي يولد فيها إحساس بالدونيّة الحقيقيّة، أو بدونيّة مفترضة ، فإن إرادة القوة تناشد العناصر الأخرى في الشخصيّة لتعويض هذه الدونية. ويقال في هذا الصدد، إن القوى السريّة للنفس الإنسانيّة، الخاصة بتفجير طاقات الإنسان، وإظهار مزاياه، تكمن في القلق الخاص بالدفاع عن كل ما من شأنه أن يقلل من أهميّة الوجود الشخصي.

وتحدد إرادة التعويض هذه أهداف النشاط السلوكي، ومنه تنبثق الخيالات الموجهة التي تمارس، كما يقول آدلر، قوتها الخاصة، ولا سيّما في لحظات القلق، والإحساس بانعدام الأمن ؛ ويضاف إلى ذلك كله أن هذه الإرادة تمارس عملها خفيّة داخل اللاشعور. وتقود هذه الخيالات الفرد إلى البحث المتواصل عن مخارج تتيح له أن يبزّ أقرانه ويتفوق عليهم. ومن هنا تشكّل الإرادة منطلق طموح الفرد، وتحدد له العوالم الخياليّة التي يسعى إلى تحقيقها. فكل إنسان يدرك

نقاط ضعفه بطريقة انفعاليّة داخليّة، وبالتالي فإن اسلوب حياة الفرد مرهون، إلى حدّ كبير، بنقاط الضعف التي يلمسها في شخصيته، حيث يسعى دائما إلى إخفاء هذه الجوانب القاصرة في حياته. ويتم له ذلك عندما تُشحن لديه إرادة الوجود بالقوة، وعندما تتشبع حياة الفرد وفقا لذلك بأهداف لاشعوريّة تسعى إلى تحقيق المجد والتفوق. وهذا يعني أن التطور النفسي يمثل نتاجا لصراع في مستوى اللاشعور بين النزعات السلبيّة، ممثلة بأحاسيس النقص، وبين النزعات الايجابيّة، ممثلة بإرادة القوة. فالنزعات الايجابيّة تسعى إلى تحقيق التعويض، وتوظف من أجل ذلك كلّ ما تملكه من قوة لإخماد الإحساس بالدونية.

الاحلام:

يمكن تفسير الأحلام والخيال، كما يرى آدلر، على ضوء النزعة إلى التعويض، لأن هذه العمليات تسعى إلى اشباع وهمي لغريزة القوة. ويعمد آدلر في هذا المستوى إلى تطبيق نظريّة فرويد الخاصة بالنزعات الجنسيّة، فالحلم وفقا لآدلر نزوع خيالي هلوسي لغريزة القوة. وهو يسعى بطريقة ذكيّة إلى تحقيق التوازن بين الوسائل من أجل تحقيق الهدف المزعوم. وذلك يعني أن الحلم بطبيعته انعكاس وهمي لنزعات كامنة،وهو يساعد الفرد على تحديد مصيره المستقبلي والسيطرة عليه. وإذا كان الحلم يرتبط بماضي الفرد عند فرويد فإنه يرتبط بمستقبله عند آدلر.

العصـــابيون:

يؤكد آدلر هنـا علـى أن المضمون اللاشعوري، الذي يوجـه الاعراض المَرَضيَّه العصابيّة، يفعل فعله في هذا المستوى. فغايّة العصاب تكون في تعظيم الإحساس بالشخصيّة، وبالتالي فإن الاعراض المَرَضيَّه تمثل، وعلى أساس الإحساس بالدونيّة، توظيفا مبالغا فيه للأدوات النفسيّة التي يمتلكها الفرد من أجل الهروب.

فالعيوب البنيويّة تؤدي إلى ولادة إحساس بالنقص يتطلب تعويضا. ولذلك فإن الشخص المعنى يحدد هدفا نهائيا وهميّا للوجود تعززه إرادة القوة. وهذه الطاقة النهائيّة تمتلك أهميّة كبيرة جدا من أجل استقطاب كل القوى النفسيّة وتوظيفها في هذا المسار.

فهل يجب على سبيل المثال أن ينظر إلى التثبيت العاطفي لفتاة ما بأبيها بمعنى ارتكاب المحرم؟ بالنسبة لآدلر يعبر ذلك عن الخوف من مواجهة الحياة والرغبة في الحمايّة: فالفتاة المريضة ، التي يتنازعها إحساس بانعدام الامن، كانت تبحث في مدار حياتها عن دعم ومساندة أبيها، وذلك عن طريق لفت انتباهه واستقطابه، فهل يمكن لنا هنا أن نصف هذا السلوك بأنه سلوك نحو محرم، وكأن الفتاة بهذا المعنى ترغب في أن تكون امرأة ابيها. فذكاؤها وذاكرتها اللاشعوريّة أمليا عليها احساسا بانعدام الأمن، ومن أجل تجاوز هذه الكآبة الأمنيّة، تقرر أن تلجأ إلى أبيها وكأنها اصبحت زوجته. فهي

تجد عند الأب تعويضا كافيا لاحساسها بالنقص، ولذلك فهي تسلك بطريقة رمزيّة وتتراجع دائما أمام احتمالات الخطوبة، وذلك لأن هذا الاحتمال يضعها أمام صعوبات جديده، وينال من اخساسها بشخصيتها. ولا ينكر آدلر أبدا الشروط الجنسيّة للعصاب بل يدخل هذه الشروط في إطار تصوراته للتعويض.

اللاشعور الآدلري:

تسيطر على اللاشعور عند آدلر النشاطات التعويضيّة، وهو ينتظم من خلال هذه النشاطات ويتكامل. واللاشعور هو عمق الوجود النفسي لديه، فهو الذي يدفعنا في كل لحظة ليؤكد شخصيتنا، وذلك عندما نشعر بالضعف ويعطينا القيمة حيث نفتقدها. وباختصار اللاشعور هو منظومة قوى هدفها تأكيد قدرتنا على تحقيق غايّة نسعى إليها من منطلق الإحساس بالضعف.

وتلعب عمليّة التعويض عند آدلر أهميّة كبيرة داخل اللاشعور، وهي أهميّة تعادل إلى حدّ كبير أهميّة الكَبْت عند فرويد. لقد حاول آدلر أن يشرح لنا من خلال عمليّة التعويض هذه جميع القضايا التي شرحها فرويد من خلال عمليّة الكبت. ونظرته هذه تأخذ اتجاهها قطعيا.

ففي واقع الأمر، يمكن لبعض مفاهيم اللاشعور الآدلري أن

تتجانس مع آراء فرويد، وذلك هو الأكثر أهميّة ؛ ويمكن أيضا لآليات التعويض هذه أن تعمل، جنبا إلى جنب، مع آليات الكَبْت الفرويدي. وفي كل الأحوال تجدر الإشارة إلى أي حدّ بلغت أهميّة غرائز الأنا، وذلك لأن فرويد لم يعالجها بما فيه الكفايّة في ضوء الحاجة إلى القوة والاتساع. وإنه لمن الأهميّة بمكان في إطار هذا التوجه أن يشار إلى أن اللاشعور ينطوي على محركات حياتنا، فهناك في داخلنا رغبة عميقة تحاول أن تتجاوز كل العقابات لتؤكد لنا قدرتنا وأهميتنا.

ثانيا: يونغ واللاشعور الجمعي

L'Inconscience Collective

يعد يونغ Jung واحدا من أهم تلامذة فرويد، الذي سرعان ما انفصل عنه وذلك تحت تأثير علم النفس الأدلري[٢٧]. لقد أدخل يونع

---

[٢٧] يمكن الإشارة إلى أعمال يونغ التاليّة:

العمل الأول *التحليل النفسي والتداعي التجريبي في عام ١٩٠٦ Psychomalyse And Association expérimentale*، وهو يستعرض فيه منهجا خاصا لعمليات التداعي. أما كتابه الثاني فهو: *التحولات ورموز الليبيدو في عام ١٩٢٠ Les Transformations et Les symboles de la Libido* . ثم كتابه *دراسة النماذج النفسيّة في عام ١٩١٣ Contributoin a l'étude des types psychologiques*. ثم كتابه *اللاشعور* في عام ١٩١٦ *L'inconscient*. وفي النهايّة يمكن الإشارة إلى كتابه "حقيقة النفس La Réalité de l'âme" وقد ترجم إلى الفرنسيّة عام ١٩٣٨ بعنوان الإنسان في رحلة البحث عن نفسه L'homme à la découvert de son âme.

إلـــى علـــم النفـس مفـــاهيم الإنطـــواء Introversion، والإنبســـاط Extravosion، ثـم عمـل عـلى إغناء وتطوير مفهوم اللاشعور الجمعـي الذي حظي بعنايّة فرويد.

النماذج النفسيّة: الإنبساط والإنطواء:

أجهد فرويـد نفسـه، كمـا يعتقـد يونـغ، فـي تحديـد الأمـراض العصابيّـة الناجمـة عـن اضطرابـات ذات طبيعـة جنسيّة، وفـي أرجـاع اللاشعور إلـى نزعـات جنسيّة مكبوتـة. ولا يعترض يونـغ علـى رأي فرويد في هذا المجال، بل يعتقد أن نظريته لم تستنفذ سوى جانب واحد من المسألة. ويشير ايضا إلى أهميّة وجهة نظر آدلر حول مبدأ النزعـة إلى السيطرة والتعويض. وينطلق يونغ في هذا الخصوص من مفهوم الليبيدو، في صورته الفرويديّة المحدودة الممثلة في " الطاقـة الجنسيّة فـي خاصتهـا التحوليّـة والتطوريّـة "، إلـى رحـاب أكثر اتساعا تمتد لتشمل غرائـز السيطرة جميعهـا، ولا سيّما غريـزة القوة والسيطرة. فالليبيدو اليونغي هو إذن الطاقة الغريزيّة في إطار قدرتها علـى التحول والتطور.

ويعتقد بعض الباحثين أن هنـاك جانبـا آخـر من الليبيدو يمتلك خاصة السيطرة، وذلك وفقا الحالات المتغايرة، وهذا يشير إلـى وجود لاشعور متغاير، وإلى أنماط مختلفة من اللاشعور. ومن جهة أخرى يصف لنا آدلر حالات عصابيّة يحاول فيها المريض أن يؤكد ذاته

بتعزيز شعور وهمي بالتفوق. وهنا يمكن الإشارة إلى ملاحظات فرويد التي تفيد: بأن مرضاه غالبا ما يخضعون لتبعيّة دائمة وخاصة بالنسبة للشخصيات الهامة في حياتهم كالأب والأم. فالمسألة تكمن إذا في القوة التي تحدد. وهنا يميز يونغ بين نموذجيين أساسيين: النموذج الإنطوائي الذي يسيطر على نزعات الأنا، والمنبسط الذي يسيطر على النزعات الموضوعيّة. فالنموذج الأول يعاني وذلك في الحالة الطبيعيّة من التردد والفوريّة والتحفظ ، ولا يميل إلى الإستسلام بسهولة، ويكون أصحاب هذا النموذج متأهبين دائما للدفاع. وعلى خلاف ذلك ينطوي النوذج الثاني على عناصر المودة والإنفتاح، والمجاملة والقدرة العاليّة على التكيّف، وغالبا ما يندفع أصحاب هذا النموذج إلى بناء المغامرات الجريئة. وبناء على هذا التقسيم يعتقد يونغ أن العصاب غالبا ما يكون أكثر انتشارا عند اصحاب النموذج الإنطوائي ؛ وقد اتضحت معالم هذه النتيجة، كما يعتقد يونغ، عند آدلر. وهنا يترتب علينا العودة إلى فرويد فيما يتعلق بالنتائج التي ترتبط بوضعيّة المنبسط.

يُوسّع يونغ مفهوم اللاشعور الفرويدي ليشمل اللاشعور الأدلري. ويضاف إلى ذلك أنه ينظر إلى الليبيدو في صورة تكوينيّة جديدة تنطوي على قوتين تربطان بين الأنا والعالم الخارجي وهما: قوتي الجبذ والنبذ. ويمكن ومن خلال تحديد اتجاه القوة السائدة (الجابذة أو النابذة) وطبيعتها تحديد نموذج الفرد فيما إذا كان انبساطيا أو انطوئيا.

تقع الملاحظات السابقة برمتها في مجال اللاشعور الفردي. وهذا

يعني أن يونغ يفكر في ما هو أبعد من ذلك إذ يعتقد بوجود جانب آخر غير فردي في اللاشعور أو ما فوق فردي وهو اللاشعور الجمعي.

اللاشعور الجمعي: L'inconsient Collectifi

قام كل من فرويد ورانك بدراسة الرموز الخاصة باللاشعور الجمعي، وذلك في ضوء الأساطير. كتب فرويد بخصوص الأساطير Mythes يقول: " *إن الرموز لا تظهر بوضوح عند الحالم، وهي لا تسم بالضرورة العمل الذي يقوم به أثناء الحلم، فالأساطير، والحكايات الشعبيّة، والأمثال، والفولكلور، تنطوي على الرمزيّة نفسها التي توجد في الحلم*". ويضاف إلى ذلك أن فرويد تناول، في كتابه الطوطم والتابو *Totem et Tabou*، في عام ١٩١٣، القضايا اللاشعوريّة للعقليّة البدائيّة. وعلى أثر الأعمال التي أدّاها يونغ، اتجه فرويد إلى المزاوجة بين علم النفس الجمعي وعلم النفس الفردي، ويتبدى ذلك في كتابه *علم النفس الجمعي وتحليل الأنا La psychologie collective et analyse du Moi* (١٩٢٣).

ولكن وعلى الرغم من أهميّة الأعمال التي قام بها فرويد في هذا المجال، يُعدّ يونغ بحق منظر اللاشعور الجمعي، ورائد هذا الاتجاه. فهو يحدثنا، في كتابه اللاشعور *L'inconsient*، كيف دفعه التحليل المباشر لأحد مرضاه إلى اكتشاف أحد الرموز الذي يعود إلى الأساطير التي عرفها لاشعور أسلافنا القدماء. لقد تحققت النقلة النوعيّة في تفكير

يونغ، أثناء علاجه لفتاة تعاني من عقدة أبويّة Complexe Paternel ، حيث لاحظ يونغ، في أحلام مريضته، ما يدعو إلى الدهشة: حلمت الفتاة: *أنها في هضبة مغطاة بحقول القمح ، ثم فجأة تشاهد معالجها (يونغ نفسه) وهو يأخذها بين ذراعيه كطفل صغير، وبعدها تهز الريح حقول القمح، وتبدأ سنابل القمح تتمايل، بالطريقة نفسها التي تتمايل هي بين ذراعي يونغ، كانت تشاهده وكأنه عملاق كبير، وكأنها ريشة تتهادى بين ذراعيه*. فالفتاة على ما يرى يونغ تعيش رمزيّة اسطوريّة تعود إلى روح الإغريق، وإلى قدماء الأسلاف: لقد تحول "يونغ " إلى سرّ من أسرار التاريخ العام للروح الإنسانيّة في أحلام مريضته هذه.

تأخذ هذه الصور، ذات الطابع الإسطوري، التي تتوغل في داخل العمق السحيق للعقل الباطن، تسميّة النماذج الأوليّة Archetypes عند يونغ. وهي تلامس بقايا وجود بدائيّة هذا من جهة، وتلامس من جهة أخرى المفاهيم العليا التي توجد في أصل الرمزيّة الجماليّة والدينية. فنحن إلى حدّ ما نمتلك في لاشعورنا جانبا من النفس الكليّة التاريخية. وبالنتيجة فإننا في حالاتنا اللاشعوريّة نعيش في عالم تسوده ذئاب كاروس، وتسكنه الشياطين، والسحرة، ومردة الجن. وهي الكائنات التي أحيّت فينا، في مساحات الزمن الفائت كل المشاعر العميقة. ومع ذلك فنحن نمتلك، في لاشعورنا أيضا، جانبا من إرادة الآلهة والشياطين، والمنقذين، الأشرار، ألا يفسر لنا هذا حضور

الملائكة والآلهة، في *آرائك الملائكة* عند سانت بول، وفي *ممالك النور الغنوصيّة* عند دونيس.

يونغ وفرويد:

على الرغم من التقارب الظاهري بين وجهات النظر، عند كل من يونغ وفرويد، فإن تصورات يونغ لأبعد ما تكون عن هذه التي نجدها عند فرويد. فغالبا ما يقارب فرويد مسألة اللاشعور الجمعي عندما تقتضي الضرورة منه ذلك، وهو، في سياق مقارباته للمسألة ، يعلن عن وجود عناصر لاشعوريّة جمعيّة متشابهة عند الجميع، مثل: عقدة أوديب، أو عقدة الخصاء. أما العقد الأخرى، التي لا تنطلق من أرضيّة مشتركة، فهي عقد شخصيّة خاضعة لتجارب فرديّة محضه. **فاللاشعور، كما يعتقد فرويد يتشكّل في مرحلة الطفولة ، *وبالتالي فإن* الصور الرمزيّة الأسطوريّة تتشكل بتأثير لاشعور جمعي يتميز بسمة الحضور.**

ولكن، وعلى خلاف فرويد، يعتقد يونغ أن النماذج العليا اللاشعوريّة (صور رمزيّة أسطوريّة) هي نماذج موروثة من لاشعور سلفي سابق لوجودنا. نحن نولد مزوّدين بلاشعور جمعي قادر على توليد صور موروثة، ويمكن استطلاع جوانب ازدهاره وضعفه من خلال وجهة النظر هذه. وغني عن البيان أن القول اليوم بوجود لاشعور

جمعي أصبح مقبولا إلى حدّ كبير.[٢٨]

ومن جهة أخرى يبدو أن المحللين النفسيين اعتمدوا المفاهيم الخاصة في نظريّة يونغ، ولا سيّما مفهومي: الانبساط، والإنطواء؛ وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول إن ميتافيزياء يونغ تنطوي على عناصر علميّة بالغة الأهميّة وقابلة في الوقت نفسه للمناقشة.

ثالثا: ميلاني كلاين:

Melanie Klein

البعد الخيالي والمرحلة ما قبل الأوديبيّة:

La dimension imaginaire et la periode pre- Œdipienne

كانت ميلاني كلاين، في هذه المرحلة، تسعى، من خلال أبحاثها حول الأطفال، إلى اكتشاف قانونيّة العالم الداخلي للأطفال، بدءا من عمر الرضاعة حتى المرحلة ما قبل الأوديبيّة (المرحلة الفمويّة والشرجية). وانطلقت في أبحاثها هذه من فرضيّة فرويد الأساسيّة حول

---

(٢٨) يشير بدوان Baudown في إحدى مقالاته النفس والفعل L'âme et l'action في عام ١٩٤٤ إلى وجود مناطق لاشعوريّة مميزة وهي اللاشعور الجمعي واللاشعور الشخصي واللاشعور الغريزي.ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى طروحات بيون الخاصة بالفرضيات الأساسيّة التي يبني على أساسها وجود لاشعور جمعي يشترك فيه جميع أفراد الجماعة (انظر كتابه أبحاث حول الجماعات الصغيرة Recherches sur les pelits groups).

ازدواجيّة الدوافع الليبيديّة: بين النزعة إلى الموت وبين النزعة إلى الحياة. وأدت أبحاثها، في النهايّة، إلى إبراز أهميّة الهوامات [29] Fantasmesاللاشعوريّة الخاصة بالمرحلة الأولى من العمر، وإلى التأكيد على خطورة الجانب الخيالي وأهميته في حياة الطفل والراشد. واستطاعت انطلاقا من هذه الرؤيّة أن تُدخل في النهايّة مفاهيم جديدة كالانفصال Clivage والمراحل الأساسيّة لعقدة أوديب[٣٠] .

القبيح والحسن: Bon objet et Mauvais objet

يشكّل ثدي الأم كما يعتقد فرويد الموضوع الأول لغريزة الطفل. وهذا الموضوع الجزئي (الثدي) لا يمثل الأم بكاملها كما تعتقد كلاين، حيث يشعر به **الطفل وكأنه امتداد لذاته وبعدا من ابعاده الوجوديّة**. إن ظهور الدوافع عند الطفل يترافق بحضور نفسي خيالي

---

[٢٩] الهوام: Fantasme أو إستيهام وهي تصورات خياليّة خادعة تأخذ هيئة الحلم والهلوسة وهي سلسلة من التخيلات لحوادث سارة أو خبرات مؤلمه تحقق للفرد نوعا من اللذة أو الإحساس بالألم. ويعد الخيال الجامح إحدى الحيل الدفاعيّة الناجمة عن الحرمان. فعندما لا يستطيع فرد إشباع رغبة ما في عالم الواقع فإنه يهرب إلى عالم من نسج خياله يحقق فيه لنفسه ما يشاء.

[٣٠] من أعمال كلاين Klein التي ترجمت هي: *محاولة في التحليل النفسي* Essais De Psychanalyse عام ١٩٦٧ ، ثم *التحليل النفسي للأطفال* La psychamalyse des enfants عام ١٩٥٩ الصادرين عن دار F.U.P. ويمكن الإشارة إلى كتابه *الرغبة والعرفان* Envie et gratitude عام ١٩٦٨ Gallemard .

(تصوري)، ومن هذا المنطلق فإن ثدي الأم يبدو للطفل جيدا عندما يفيض عليه بالحليب، ولكنه قد يبدو له سيئا عندما يجف ويمتنع عن العطاء: ومن هذا المنطلق يمكن القول: إن خيال الطفل يكوّن في داخله هوام الأشياء الجيدة وهوام الأشياء السيئه.

وتعتقد كلاين أن الهوامات *Fantasmes* (الخيالات المتصورة) الخاصة بالجيد والحسن تنتظم في دوافع ليبيديّة (دوافع الحياة)، وتعتقد أيضا أن خاصة الأشياء السيئة ترتسم في صورة الدوافع التدميريّة ، بطريقة يبدو فيها، ومنذ البدايّة، أن صدر الأم ينعكس في وعي الطفل بطريقة خياليّة في اتجاهين يمثل لأحدهما صورة طيبة بينما يمثل الثاني الصورة السيئة؛ وبالتالي فإن هذه الإزدواجيّة تستجيب لثنائيّة الحياة والموت.

القهر والانفصال: Pérsecution et clivage

يحاول الطفل، في مسار نموه، أن يتمثل صدر الأم المثالي المعطاء ، وأن يرفض صدرها الضنين، دافعا به إلى العالم الخارجي الذي يبدأ باكتشافه تدريجيا. وينجم عن ذلك أن صدر الأم الخارجي الضنين يتبدى للطفل بوصفه عدوانيا ومعذبا. ويتمثل ذلك في ميول الطفل العدوانيّة نحو صدر الأم، إذ ينال أحيانا صدر أمه بالعض، ويجسد هذا الفعل بالطبع دوافع عدوانية. وهكذا تبدو الحقيقة الخارجيّة، على أساس الانطباعات الجيدة والسيئة، مزدوجة أيضا: فهي قبيحة

وحسنة في آن واحد.

تطلق كلاين تسميّة وضعيّة الاضطهاد *Position Persécution* على هذه العلاقة مع الموضوع الذي يعذب ويقهر. وتأخذ هذه الوضعيّة مكانها في إطار نسق من الهوامات أو المخاوف التدميريّة التي تأخذ صورة ترددد بين وضعيّة الإسقاط وبين وضعيّة التمثيل.

وضعيّة الاكتئاب[٣١] والتناقض الوجداني[٣٢]

:Position dépressive et ambivalence

يخرج الفرد من وضعيّة الاكتئاب تدريجيا وذلك وفقا لاتجاه نمو التجارب السارة، ويعني ذلك أن الخروج من هذه الوضعيّة مرهون إلىحدّ كبير بانتصار الخبرات السارة التي تلعب دور الحمايّة والدفاع. ويحدث ذلك عندما يكون موضوع الخبرة قابلا للتحديد، ليس كموضوع جزئي، بل كموضوع كلي متكامل حيث تبدو الأم، وفقا لهذه الصورة، المصدر الوحيد للخبرات السارة والمؤلمه في آن واحد.

---

[٣١] اكتئاب Dépression: حالة انفعاليّة تتميز بانخفاض النشاط النفسي والبدني وهي على نوعين فإما أن تكون طبيعيّة أو مرَضيّه وعندما تكون مَرَضيّه تستولي على المريض مشاعر التبخيس واليأس وعدم الكفاية (المترجم).

[٣٢] التناقض الوجداني Ambivalence: يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى وجود مشاعر وانفعالات متناقضة في آن واحد، مثل: الحب، والكراهيّة، والسيطرة والخضوع. وبعبارة أخرى يشير المصطلح إلى تذبذب الفرد بين ميلين متعارضين في آن واحد.

فالطفل يشعر أن الام هي مصدر الحنان، والعطاء، والاحباط ، في الوقت نفسه، ويشعر أنها موضوع نزعاته الوديّة والعدائيّة على السواء.

ومن هذا المنطلق فإن لاشعوره يعاني من الخوف من أن تقع أمه (موضوع حبه) فريسة هواماته العدوانيّة المدمره. وهنا تتجلى مشاعر خيبة الأمل، والإحساس بالذنب، التي ترافق عمليّة الانفصال ؛ ومن هذا المنطلق فإن حضور الأم وعنايتها وحبها يؤدي، في النهايّة، إلى ازالة احاسيس الكآبة بشكل تدريجي عند الطفل.

المراحل الأساسيّة لعقدة أوديب:

تصب أبحاث كلاين، إلى حدّ كبير، في حوض المرحلة ما قبل الاوديبيّة من نمو الطفل، ولا سيّما في المرحلتين الفمويّة والشرجيّة، وكلتاهما مجتمعتين يشكلان المرحلة الزمنيّة التي تتأكد فيها علاقة الطفل بالموضوعات التي تشبع أحاسيسه ونزواته الفمويّة والشرجيّة. وإذا كانت كلاين لا تركّز على المرحلة الجنسيّة أو القضيبيّة، التي وصفت بدقة من قبل فرويد، فإنها تتعرض هنا لبعض أعراضها الأوديبيّة. ففي الوقت الذي يدرك فيه الطفل موضوعه "الأم "، على نحو كلي، يشعرأنه ليس المحور الوحيد لاهتمامها، وأن العلاقة التي تربطها بأبيه تجعله هامشياً إلى حدّ ما، وهذا بدوره يدفع الطفل إلى الاعتقاد , عبر هواماته حول العلاقة الجنسية بين الأب والأم، بأن العلاقات الأبويّة علاقات تدميريّة.

اللاشعور الكلايني:

تسجل هذه الومضات الخياليّة الجنسيّة (الهوامات Fantasmes) المشار إليها سابقا وجودها داخل اللاشعور، وذلك على مدى حياة الفرد. ويشكّل الانفصال Clivage بين الجيّد وبين السيء، بين ما هو لذيذ وما هو مؤلم ، مصدرا للرغبة والقلق، ويحدد هذا الفصل، بطريقة مدهشة، طبيعة العلاقات التي تقوم بين الراشد وبين الوسط الاجتماعي. وفي النهايّة يمكن القول أنه كان لميلاني كلاين قصب السبق بين المحللين في التوغل بعيدا جدا لتحليل العالم الداخلي للطفل، وللزمن البعيد المعاش من قبل الطفل في مهده الأول.

لقد أولت كلاين البعد التصوُّري للعلاقة بين الشعور وبين اللاشعور أهميّة كبيرة تتضاءل معها أهمية الإهتمام بدراسة البعد الرمزي لهذه العلاقة ولا سيّما قدرة الطفل الخاصة على تمثل الرموز وعلى امتلاك اللغة في دائرة علاقاته بأبويه.

رابعا: لاكان والعودة إلى فرويد

البعد الرمزي

يختلف اتجاه جاك لاكان Jacques Lacan المعرفي عن الاتجاهات السابقة. وتتصف أعماله بدرجة عاليّة من الصعوبة والتعقيد،

وتحيط بها هالة من الغرابة تجعله قاب قوسين أو أدنى من فرويد. وبالاستناد إلى الأنتربولوجيا البنيويّة، وانطلاقا من الفلسفة الهيجليّة كرس لاكان نفسه للبحث في معنى ودلالة الخطاب الفرويدي[٣٣].

لقد كان لاهتمام لاكان بالذهان الهذياني، الذي ظهر في أطروحته الطبيّة، أن يدفعه إلى الاهتمام بمسألة العلاقة بين الأنا والخيال لاحقا في عام ١٩٣٢. و بدأت مساهمته الأولى في مجال التحليل النفسي في عام ١٩٣٦ ، على أثر مشاركته في المؤتمر الدولي الرابع عشر للتحليل النفسي، ومناقشاته حول موضوع مرحلة المرآة Miroir.

مرحلة المرآة:

تشكّل اعمال لاكان، حول مرحلة المرآة، اتجاها مركزيا في

---

(٣٣) نستند هنا وبشكل جوهري على مقالات لاكان التي صدرت في دوريات علم النفس والتحليل النفسي وهي على التوالي: *مرحلة المرآة كمُشَكّل لوظيفة الأنا* ***Le stade du muroir comme formateur de la fonction du je***. نشرت هذه المقالة في مجلة التحليل النفسي ***Psychanalyse*** ١٩٤٩ . ثم مقالته: *وظيفة اللغة والكلام في مجال التحليل النفسي* المنشورة في مجلة التحليل النفسي***Psychanalyse*** في عام ١٩٥٦، ومقالته في *الأدب واللاشعور* :نشرت في مجلة التحليل النفسي المذكورة سابقا في عام ١٩٥٧. ويمكن العودة أيضا إلى مقالته *الشئ الفرويدي أو دلالة العودة إلى فرويد في التحليل النفسي* ***La Chose freudienne ou le sens du retour au Freud*** وقد نشرت هذه المقالة في مجلة تطور الطب النفسي ١٩٥٦.**Evolution psychaitrique** كما يمكن العودة إلى *وضعيّة اللاشعور* **Position de L'inconscint** التي نشرت في مجلة اللاشعور ١٩٦٦.**Incocseit** وأخيرا يمكن العودة إلى مجلة **Ecrits** وهي الدوريّة التي تجمع جل مقالاته هذخ ومقالات أخرى.

نسق اعماله، وتدور أحداث هذه المرحلة في المرحلة العمريّة الممتدة بين الشهر السادس وبين الشهر الثامن عشر من عمر الطفل، وهي المرحلة التي يبدي فيها الطفل ردود فعل سلوكيّة إزاء صورته في المرآة. ففي هذه المرحلة تتبدى سلوكات ذات طابع انتصاري للصورة تترافق بمشاعر الإبتهاج. فالطفل في هذه المرحلة، كما يبيّن لاكان، يعاني من حالة ضعف لانهائيّة، ومن حالة لا توازن، ويجد في صورته الخاصة ما يساعده، وبطريقة خياليّة، على إدراك نفسه والسيطرة على وحدته الجسديّة. فهو يتحد مع هذه الصورة والصورة المشابهة لها بصورة كليّة، وهذا يعني أن الطفل يعيش في هذه المرحلة تجربة أوليّة تشكل منطلق وجوده الأنوي.

يسعى لاكان لتطوير تصوُّره لهذه المرحلة، التي يتوحد فيها الطفل بصورته، ويركز اهتمامه على مفاهيم الجسد والصور التي تشكّل نواة ومنطلق الوجود النرجسي للفرد. وهو يشير بذلك إلى أن التوحد الأول مع الصورة يشكّل المنطلق الأصيل لكل أشكال التوّحدات اللاحقة، وذلك يؤكد أهميّة العلاقة التي تقوم بين الفرد وبين جسده. ومن هذا المنطلق يشار إلى الأهميّة التي تحيط العلاقة بين الفرد وبين أشباهه، التي تشكّل بدورها النظام التصوري والمنطلق المباشر لولادة التساؤلات الخاصة بالخيالات والهوامات.

يبدأ تشكّل الأنا منذ مرحلة الصورة، وقبل تشكّل الصورة الكليّة للجسد، يلجأ الطفل إلى خيالاته المسبقة حول الجسد، وهو في هذا

السياق يبحث في نظرات الآخرين عن الطمأنية التي تعزز وجوده وتعمق الاعتراف بهذا الوجود. ويحدث ذلك كله يحدث في إطار علاقة تبادليّة تسمح للطفل بتشكيل صورة مستلبة كما تسمح له بالوصول إلى نظام آخر غير هذا الذي تم تصوُّره أي إلى عالم آخر ذي طابع رمزي.

إن تشكّل الأنا في مرحلة الصورة لا يتم على نحو فردي،لأن ذلك يتطلب توسط شخص ثالث بطريقة ما وهذا يعني أن مرحلة الصورة تهيئ قاعدة للتبادل بين التصوري الرمزي.

فالفعل التصوري ليس عدما إذ لم يكن هناك من إمكانيّة التعبير عنه بالقول، وبالتالي فإن نسق التصورات لا يوجد إلا في إطار علاقته مع النظام الرمزي.

النسق الرمزي وعقدة أوديب:

تتجلى أهميّة الظاهرة الرمزيّة في عمل فرويد حول تفسير الأحلام، فالحلم ظاهرة رمزيّة تنطوي على منظومة من الدلالات، وهو لغة لها قوانينها الخاصة وعملياتها المحدده ووظيفتها الرمزيّة. وفي هذا الميدان تبرز أهميّة الكلمة وأولويّتها وتتبدى أهميّة الإشارات والدلالات الرمزية. فالنظام الرمزي يشكّل بالنسبة للكائن البوتقة التي يتشكّل فيها، ومن هذا المنطلق يمكن القول: إن النظام الرمزي يلعب دورا حاسما في بناء الفرد وفي تشكيله، وهو بالتالي يجد تعبيرا لوجوده في ميادين الكلام واللغة وسلسلة الدلالات الرمزيّة.

شكلت هذه الرؤيّة منطلق لاكان في الكشف عن أهميّة النسق الرمزي في عقدة أوديب. فعقدة أوديب لا تنطوي على ثلاثة أبعاد أساسية (الأب والأم الطفل) فحسب بل تنطوي أيضا وبالضرورة على بعد رابع وهو البعد الإمزي الذي يسمح لكل فرد أن يأخذ وضعيّة محددة والحق يقال أنه إذا استطعنا أن نزاوج بين كل زوجين من هذه الأبعاد (الأم والأب، الأم والطفل، الأب والطفل) فإن إدخال بعد رابع أمر ضروري وذلك من أجل خلق وضعيّة التبادل الرمزي، ومن أجل بناء العلاقات بين الأشخاص التي تبنى على أساس العلاقات الرمزية في مستوى الكلام. وذلك كله يؤسس جوهريا ما يمكن أن نسميه بالعلاقة الثلاثيّة وهي العلاقة الرمزيّة التي تقوم من خلال التفاعل بين جوانب الصورة وبين الجسد والكلمات التي بها تعرف الأشياء وتُسمى.

بنيّة اللاشعور وبنيّة اللغة:

يشير لاكان، في هذا المستوى، إلى أهميّة الاكتشاف الفرويدي للبنية اللاشعوريّة، بوصفها نظاما آخر، يختلف عن النظامين: الشعوريّ وما قبل الشعوريّ. فاللاشعور عند فرويد يمتلك قوانينه وعملياته الخاصة مثل: التكثيف، والتحويل، والترميز، والدراماتيّة . ومن هذه الزاويّة ينطلق لاكان لتحليل هذه العمليات في إطار صيغة علميّة لغويّة، ويبدأ ببناء نظرية حقيقيّة متكاملة عن بنيّة اللاشعور، حيث اندفع إلى رحلة البحث التي لا تتوقف عن أهميّة الخطاب داخل اللاشعور،

حيث يصل في النهاية إلى نتيجة تؤكد أن بنيّة اللاشعور بنيّة لغويّة بالدرجة الأولى.

فعمليّة التحويل Déplacement ، التي تتمثل في استبدال دلالة بأخرى،تجانس إلى حدّ كبير عمليّة المجازات الأدبيّة التي تأخذ اتجاها واضحا في الصياغات الأدبية، حيث يتم من خلالها تحويل دلالة خاصة، غير مناسبة لاسم ما، إلى دلالة أخرى، وذلك من خلال المقارنة التي تجري داخل الذهن، ومثال ذلك عندما نقول عن واحد من الناس: إنه كالأسد. ويتوافق التحويل Déplacement مع الكنايّة Metonymie، وهي صياغة تُؤخذ فيها النتيجة على أنها سبب، والسبب على أنه نتيجة، والحامل بوصفه محمولا، والاسم على أنه مكان.

وتجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أن المجاز Metaphore لا يربط بين المفاهيم إلا من خلال المقارنة المضمرة، وإلى أن الكنايّة تحدد موضوعها في داخل المفهوم الذي يرتبط مع مفهوم آخر بعلاقة، أي بإيجاد رابطة بين إشارة دالة وبين إشارة أخرى وهنا تتم العمليّة الأساسيّة والأوليّة للغة.

فاللاشعور، كما يريد لاكان أن يصفه، يؤدي عمله وكأنه لغة بنائية، فهو الذي يتكلم داخل الإنسان. ويعتقد لاكان، في هذا الخصوص، أن الأعراض السيكولوجيّة ذات طابع لاشعوري، ويمكن فك رمزيتها بناء على هذا الأساس، وهذا ينسحب على ذكريات الطفولة، ونمط الحياة والمفردات الخاصة. وعلى خلاف ذلك يأخذ

اللاشعور عند فرويد هيئة واضحة محدده، إذ يحدد فرويد كل مالا ينتمي إلى اللاشعور، مع ذلك توجد هناك أشياء غامضة وغير قابلة للمعرفة وهي تلعب دورا غامضا إلى حدّ ما.

ومن هذه الزاويّة يترك لاكان لنفسه أن يقرأ في رؤيّة فرويد منطلقا للقول إن اللغة هي مفتاح الظاهرة اللاشعوريّة. ومن هنا يسعى أيضا إلى تطوير أبعاد هذه الرؤيّة الفرويديّة الخاصة بالبنيّة اللغويّة للظاهرة اللاشعوريّة، وذلك انطلاقا من كتب فرويد: *تفسير الأحلام*، ثم *علم النفس وأمراض الحياة اليومية*، *والنكته في علاقاتها مع اللاشعور*؛ ومن خلال هذه الأعمال يُبرز لاكان المضمون النظري والعملي للغة وفقا للصورة الذي ينطلق فيها فرديناند سوسور Ferdinand de saussure في نظريته اللغويّة والخاصة بالدال Signifiant والمدلول Signifié.

الدال والمدلول والكبْت

Signifiant Signifié et refoulement:

يشكّل مخطط الدلالات عند سوسور Ferdinand de saussure نظاما للتعبير، بينما يحدد نظام المدلولات مضمون النظام التعبيري لديه. *فالدلالة هي الفعل الذي يربط بين الدال وبين المدلول*، أي أن

هذا الفعل يؤدي إلى بناء مغزى أو دلالة[٣٤]. ويقترح لاكان في هذا السياق تمثيلا بيانيا لمعنى الدلالة يسمح بإدراك بنيّة الدلالة كما تَمثُل في داخل اللاشعور وفي إطار تحولاتها إلى صيغة لغويّة ورمزيّة.

إذا كان حرف (س) دالا وكان (سَ) مدلولا يرتبط به، ترتّب علينا أن نرسم هذه الصيغة كالتالي (س سَ) وهي علاقة الدال بالمدلول. فنحن هنا أمام سلسلتين رمزيتين: سلسلة الرموز الدالة (س) وسلسلة المدلولات(سَ)، حيث يمكن القول إن السلسلة (س) تمثّل لغة خام، أما السلسلة (سَ) فهي تشكّل لغة عائمة وهي لا تترابط إلا في بعض المحاور مع النسق الأول: فالمدلولات صيغة عائمة متنقلة وذلك لأنها دائما في طريق البحث عن مغزى أو دلالة، ويلاحظ في هذا السياق أن المحاور المعينة سابقا هي محاور وهميّة لأنه لايوجد أحد يمكنه أن يعطي دلالة واحدة مطلقة لدال. ولكن ما هو ممكن فعله هو تحديد العلاقات بين الدال وبين المدلول وفي هذه الحالة يحدث شئ جديد فهناك دائما دلالة جديدة تخرج من حيز الوجود.

---

(٣٤) فرديناند سوسور Ferdinand de saussure: محاضرات في علم اللغة العام.Cours de Linguistique générale . ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أن العلاقة بين الدال والمدلول عند سوسور تشكّل مضمون الإشارة الدلالية. ومن الأهميّة بمكان أيضا الإشارة إلى أن المدلول ليس سوى شيء ولكنه يأخذ على المستوى النفسي صورة ذهنية. فمدلول كلمة عجل ليس الحيوان نفسه بل الصورة النفسيّة للعجل. فالدال هنا هو وسيط مادي للمدلول، وبالتالي فإن الدال والمدلول لا وجود لهما إلا في إطار علاقة أحدهما بالآخر، وفي هذا المسار يعتقد سوسور أن المدلول يشكّل أساس الدال ولا يمكن إدراك المدلول إلا من خلال الدال.

لقد لاحظنا سابقا أن التعبير المجازي يحدث حينما نستبدل بالعلاقة، القائمة بين الدال وبين المدلول التي كانت في مثالنا [س، سَ]، علاقة جديدة يستبدل فيها الدال الأصلي، على سبيل المثال، فيصبح [ب، بَ]. فالرمز الناجم ولنطلق عليه بَ يشير في هذه المرّة إلى دال جديد يحل محل الدال الأصلي. ولهذه العمليّة أهميّة خاصة تنعكس في مستوى المدلول.

وهنا يجب أن نعطي أهميّة خاصة للحاجز الفاصل بين ب وبين بَ ، ولا يوجد هذا الحاجز هنا من أجل إيجاد العلاقة بل من أجل الفصل بين الطرفين. ويلاحظ هنا أن الحاجز يمثل عمليّة كَبْت المدلول وصياغته في مجاز رمزي.

يميز فرويد بين نوعين من الكَبْت، إذ يتحدث عن كبْت لاحق، وعن كَبْت أصيل وهو الكبت الذي يحدث في لحظة الصد التي يتعرض لها الدافع اللاشعوري من قبل الشعور. وهذا يعني أن اللاشعور موجود قبل الشعور وأن اللاشعور ليس من نفايات الشعور، وبمقدار ما يكون هذا الكَبْت أصيلا فإنه يتحدد في إطار صيغة لاشعوريّة، ويسجل نفسه في سلسلة المدلولات. وبالتالي فإن الدافع يتحدد في صورة رمزيّة نفسيّة وتمثل هذه العمليّة الإجراءات التي تجعل الدافع ممنوعا وحاضرا في مجال اللاشعور.

من جانب آخر، يأخذ لاكان بالتمييز، الذي يؤكده فرويد، بين تصورات الأشياء، وبين تصورات الكلمات، وهي تصورات تمثل

مجتمعة عناصر اللغة. وإذا كانت تصورات الكلمات تشير إلى النظام ما قبل الشعوري والشعوري ، فإن تصورات الأشياء تشير إلى اللاشعور، وإذا كان النظام الشعوري وما قبل الشعوري يحتويان دفعة واحدة على الكلمات الدالة والمدلولات، فإن النظام اللاشعوري لا ينطوي على شيء آخر سوى الصور، ولايوجد فيه تمييز بين الدال وبين المدلول: فالسلسلة اللاشعوريّة يمكنها أن تكون مفتوحة لكل المعاني في صورة دلالات خام.

اللاشعور وخطاب الآخر:

ومن زاويّة أخرى يمكن القول إن الوظيفة الرمزيّة هي التي تمايز بين الإنسان وبين الحيوان وتُشكّل الثقافة: فالتبادل هنا لا يقوم على أساس قانونيّة الحاجة، بل يقوم على أساس قانونيّة أخرى. فالوظيفة الرمزيّة تنطلق من مستويين: في المستوى الأول يشار إلى المرحلة التي تتحقق فيها وتنتظم، والتي تتمثل في كلام الإنسان ؛ بينما يشار في المستوى الثاني إلى المرحلة التي تولد فيها شروط هذا الكلام في سياقة الرمزي. وهنا وفي إطار المرحلة الثانيّة المشار إليها يشير لاكان إلى الآخر Autre، مقتبسا صيغة فرويد المشار إليها في تفسير الأحلام، وذلك عندما يتحدث عن المشهد الآخر، عن الهو Le Ça الذي يتحدث، حيث تتشكّل في هذا المستوى شروط الكلام عند الإنسان، وتبدأ حركة النشاط الدلالي.

يمكـن القـول إن خطـاب الآخـر Discours de L'autre يشـكّل ويكـّون بنيـّة الرغبـة، وأن التسـاؤل عـن رغبـة الآخـر، وعـن الرغبـة الذاتيّة، في الوقت نفسه، يوجه حركة العلاج التحليلي.

فالرغبة تتجه دائماً إلى أشياء أخرى غـير موضوعهـا الأساسـي. وهي بذلك تواجه نقصا فـي هـذا التوجـه حـول موضوعـات أصبحـت مفقودة بالمعنى الواقعي للكلمة، وهي هنـا الـدلالات التـي تتحـول إلـى قاطرات اللاشعور. وبالتـالي فـإن الموضوعـات المفقـودة لا يمكنهـا أن تكون غير مدلولات لم يعثر عليها، ولذلك ومن هنا يمكن القول: إنه مـا بيـن الموضـوع الحقيقي وبين الدال توجد مسـافة فاصلـة ، أو اختـلاف، يأخذ مكانه فـي داخل اللاشعور؛ وهـذا الضيـاع الأساسـي يـؤدي بـدوره وجود الرغبة.

إذا كان موضوع التحليل النفسي هـو البحـث عـن المفقـود داخـل بنيـّة الـدال وفي نسق الدلالة أو المغزى، فإنـه لمـن الصعـب تحديـد هـذا الموضوع عيانيا، بل يمكن البحث عنه من خـلال آثـاره ونتائجـه وذلـك لأن الحالة الدائمة تكون شاهدا على وجود الرغبة.

اسم الأب والخصاء الرمزي:

Le nom du père et la castration symbolique

لا تشـكّل دلالـة الرغبـة موضوعـا لـه حضـور بالنسـبة للفـرد، وبالتالي فإن هذا النقص هو نقص فـي داخـل الفـرد، وهـو يسـعى إلـى

تجاوزه. فمن أجل أن يوافق الآخر على أن يكون موضوعا لرغبتي، يتوجب علي بدايّة أن أشعر بالحاجة إليه. وهنا قد تكمن أبعاد الحب (وربما هذه الخاصة بالجنون: فالإنسان وحده يمكن أن يكون مجنونا)، وذلك كله يعني أن السمه الرمزيّة ضروريّة بالنسبة للإنسان،من أجل أن يدخل في عالم الرغبة. ويطلق لاكان على هذه السمة الرمزيّة *مجاز أبوي* أو اسم الأب أحيانا. هذا الأب الرمزي ليس له علاقة أبدا مع الأب الحقيقي: والجوهري في إطار هذه العلاقة يظهر من خلال الحديث عن الأم وهذا يعني أن الأم هي التي توجد الأب في إطار حديثها مع الطفل.

ينتظم هذا المجاز الأبوي انطلاقا من التهديد الخصائي الذي تمارسه الأم، وبتأثير الملاحظات الخاصة بالتباين بين الجنسين (غياب القضيب عند الأم) الذي يجعلها مرغوبة من قبل الأب.

تبدو الام في هذا السياق موضوعا لرغبة الأب ولذلك فهي ممنوعة بالنسبة للطفل ؛ فالتحويل الأبوي يشكّل القانون، وهو في الوقت نفسه يشكّل الرغبة.

فالطفل وفي سياق هذه الشروط لايُسمح له بإقامة علاقة مع الأم، وعليه أن يمتنع عن النظر إليها بوصفها موضوع رغبته الوحيد وذلك من أجل أن يكون ابنا. وهذا يعني أنه يجب أن يكون شاهدا على رغبة والديه، وأنه يجب على الوالدين أن يتراغبا أولا من أجل أن يكون هو على قيد الوجود. ومن هذا المنطلق يتحول الطفل إلى

كائن راغب.

ولكن التحويل الأبوي المؤسس للقانون يؤدي إلى خصاء رمزي. وهذا الخصاء لايتعلق هنا أبدا بالخوف الناجم عن إستئصال عادي للأعضاء، ولكنه يتعلق ببعض الأشياء التي يجب على الطفل أن يوافق عليها. وهي أشياء توجد داخل الإنسان وتسعى إلى نفي الحاجة التي توجد لديه وإلى تأجيلها. والرغبة هنا هي العامل الأساسي في تكوين اللاشعور.

القضيب وليس عضو المرأة التناسلي هو الذي يمارس فعله في نظرية لاكان، وذلك لأن تناسل المرأة يمثل لديه موضوعا جزئيا كما هو الحال بالنسبة لصدرها.

وضعيّة لاكان:

تلك هي أهم الموضوعات الأساسيّة التي يطرحها لاكان ويطورها بخصوص اللاشعور. وكما يبدو فإن مشروعه هذا قد تعرض لبعض التعديلات على أثر الهجمات التي سددها علم النفس التقليدي في محاولته لإستدراك التحليل النفسي، وعلى أثر التشويهات التي مارستها المدرسة الثقافيّة، التي أكدت أهميّة العودة المتشدده إلى نصوص فرويد ورسالته من أجل تصويب اكتشافاته وإنقاذها من بعض عيوبها وهدم القطيعة الإبيستيمولوجيّة.

لقد عمل لاكان على بناء نظريته هذه في ضوء ادراكه لصيغ تشكّلات اللاشعور، والحلم، والأعراض، والهفوات، بوصفها صيغا تحمل دلالات، وتعبر عن حدود حاجات الإنسان؛ وأنه لمن الصعب جدا أن ننكر اليوم أهميّة هذه النظريّة وخصوصيتها.

اللاشعور والوظيفة الأدبية

الفصل الثاني

يُكَّرس هذا الفصل، وهوالأخير، نفسه لمعالجة الأبعاد الأدبيّة للتحليل النفسي، ولا سيّما الجوانب التي تعكس المناحي الأدبيّة والفنيّة بصورة عامة. لقد أولى فرويد نفسه هذه المسألة اهتماما خاصا في بعض أعماله متلمّسا الآثار الثقافيّة لنظامه الفكري. وبرزت هذه الاهتمامات في أعماله القصيرة مثل "*الطرفة والحلم في غرادیفا لیانسن* *Délir et rêve dans la Cradiva de Jensen*، ثم في *لكريات طفولة ليونارد دوفانتشي* *Les souvenires d'enfance de Léonard de Vinci*. وهو في إطار هذا العمل الأخير ينطلق من ذكريات الطفوله التي دونها الرسام الكبير دافنتشي محاولا أن يجسدها في لوحة *سانت آن* *Sainte Anne*. وأما بالنسبة لتفسيره الخاص بعمل جونيس Jenese فإنه يضع حجر الزاويّة المنهجيّة في مجال التحليل الأدبي الخالص.

أولا. التحليل النفسي للأدب

فرويد: القرابة بين الفن وبين الحلم:

يصف لنا فرويد في "غرادفيا" أن الأحلام التي يبدعها الفنانون والأدباء ، في اعمالهم وكتاباتهم، يمكنها أن تخضع لقانونيّة التفسير نفسها التي تخضع لها الأحلام الحقيقيّة. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الأحلام المتخيّلة تشكّل ايضا انعكاسات لاشعوريّة تتبدّى على مستوى الشعور.

لقد دفعت الروح المنطقيّة فرويد إلى بناء هذه الملاحظة العبقرية: لماذا لا يكون الخيال الأدبي مشتملا بنفسه على معطيات لاشعورية؟ لماذا لا تكون الأعمال الأدبيّة ترجمة لأفاعيل لاشعوريّة، مثل: التحويل Deplacement ، والتكثيف Condensation، والرمزيّة Sympolisation إلخ....؟ ولماذا لا تكون تجسيدا لمركبات وعقد Complexes لاشعورية؟ ألا يمكن لهذه الأعمال الأدبيّة وفي إطار هذه الشروط أن تؤدي كالحلم وظيفة رمزيّة لاشعوريّة دالة ومحددة.

ومن هذا المنطلق يعتقد فرويد أن التراجيديا الكلاسيكيّة تعكس إلى حدّ كبير المركبات والعقد النفسيّة، وأنها تبلوّر الموضوعات التي مازالت منذ الأزل تهاجم خيال الإنسان وعقله. وهو في هذا الخصوص

يعطي لموضوع هاملت بعض المؤشرات التي كان يمكنها أن تشكّل بالنسبة لجونيس Jones منطلق دراسة تحليليّة حول هذه التراجيديا حيث ألقى الضوء هنا وللمرة الأولى على تفسير الدوافع الحقيقيّة لشكسبير.

أوتو رانك: الأساطير والأدب: Mythes et Littératures

انطلق أوتو رانك Otto Rank ـ تلميذ فرويد ـ في أبحاثه من أساس التصور الفرويدي لدراسة قانونيّة اختيار الموضوع الأدبي عند الشعراء، وكتّاب الدراما،وخرج بنتيجة قوامها: أن اختيارالموضوع يعبرعن الكاتب بالضرورة وليس عن شيء آخر. وهو في معرض الإشارة إلى غوته[٣٥] GŒthe (كاتب ويرزر Werther)، يبيّن، في كتابه مرتكب *المحارم في الشعر والروايّة ١٩١١: L'inceste dans les poèsie et les comtes* ، إلى أي حدّ يختار الشعراء موضوعاتهم وفقا للوضعيّة الأوديبيّة لديهم. ومن جهة أخرى يتضمن كتابه *أسطورة ولادة الأبطال ١٩٠٩، Le mythe de la naissance du héros* ، ثم *كتابه صدمة الولادة* ، *Troumatisme de la naissance* ، إشارات هامة حول العلاقة التي تربط بين الأساطير والأدب، ولا سيّما حول الأصول اللاشعوريّة للحاجات الأسطوريّة التي تُعزي للأبطال ولادة ثانيّة أكثر نبلا.

---

[٣٥] غوته Goethe ١٧٤٩- ١٨٣٢؛ أديب وشاعر ألماني من أعماله: "الأغاني Les *chants* في عام ١٧٧٧ ؛ آلام ويرزر *Les souffrance du jeune Werther* في عام ١٩٧٤ ؛ ثم روايته المشهورة ولهلم مستر *Wilhelm Meister* في عام 1796؛ وأخيرا روايته فوست Faust في عام ١٨٠٨.

تطور التحليل النفسي للأدب:

بدأ على أثر ذلك عدد من المحللين النفسيين يتناولون الظواهر الأدبيّة بالدراسة والتحليل. ويمكن الإشارة في هذا الخصوص إلى كتاب *إخفاق بودلير*: *L' Echec de Baudilair 1929* للدكتور لافورج Laforgue، ثم كتابه *علم النفس المرضي للإخفاق Psychopathologie de l'échec* عام ١٩٤٤، وهي دراسة هامة حول شخصيّة المفكر والأديب الفرنسي جان جاك روسو Jeun Jacque Rousseau. وكان للتحليل، الذي أجراه حول *إيكار بو Edgar Poe* في *شخصيّة الأميرة ماري بونابورت*، أهميّة خاصة في مجال التحليل النفسي للأدب في مستوى العمق والتكامل، حيث يبيّن لافورج الذكرى القسريّة التي تسيطر على الجانب اللاشعوري عند الشاعر طيلة حياته، وهي الذكرى التي شكلت عقدة عصابيته. ولابد في هذا السياق من الإشارة أيضا إلى إحدى أعمال الكاتب الإنكليزي هاكيت C.A.Hackette ، حول *غنائيّة ريمبود Le Tyrisme de Rimbaud*. ثم إلى أعمال كاستون باشلار Caston Bachelare التي تحمل قيمة عاليّة جدا. ومن هذا المنطلق تم تحليل دون كيشوت Don quechotte والأب كوريوت Père Goriot وهوفمان Hoffmann إلخ...

تحليل شارل بودوان: Charles baudauin

أكدنا سابقا على أهميّة الدراسات النظريّة والأعمال التطبيقيّة عند بودوان، الذي حاول من خلالها أن يعالج الموضوعات الأساسيّة لعلم النفس الكلاسيكي ، ولا سيّما المفاهيم الفرويديّة الأساسيّة، آخذا بعين الاعتبار وجهات نظر المدارس المنشقة عن فرويد. ويمكن القول، في هذا الصدد، أن الفضل يعود إلى بودوان في عرض هذه التفاصيل، التي تتبدى في كتابه *التحليل النفسي للفن ١٩٢٩ Psychanalyse de l'art*، وهو الكتاب الذي يبيّن اهداف وإجراءات التحليل النفسي الأدبي. ويجب علينا هنا أن نشير إلى دراسته الهامة حول *الرمزيّة عند فيريهارين Symbole chez Verhaeren* عام ١٩٢٤، ثم *التحليل النفسي لفيكتور هيغو Psychanalyse de Victer Hugo*.

يكمن هدف التحليل النفسي للأدب عند بودوان، كما هو الحال عند لافورج، في تحليله لماري بونابارت، في تحديد الأسباب الكامنة وراء الأعمال الأدبيّة، وهي بالطبع الشروط اللاشعوريّة لهذه الأعمال الأدبية. إذ تتيح عمليّة التأمل والتفكير في العمل الأدبي للباحث التوغل داخل سيكولوجيّة الكاتب، وتلك هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لاستطلاع الجانب السيكولوجي واللاشعوري عند الأدباء والكتاب. حيث يجب من أجل تفسير العمل الحصول على بعض العناصر حول حياة الكاتب، كما يجب أيضا استخدام المنهج التحليلي في الوقت نفسه،

ولا سيّما اذا كانت المقابلة مع الكاتب غير ممكنه، كما هو الحال بالنسبة للشخصيات التاريخيّة التي عاشت في عصور سابقة.

وفي كل الأحوال، يتوجب على المحلل النفسي، أن ينطلق من السيرة الذاتيّة للكاتب، ومن المواد الأدبيّة المنتجه، التي تشكّل موضوع التحليل بصورة أساسيّة، وذلك كله من أجل الكشف عن المركبات والعقد اللاشعوريّة الكامنه. وهنا لابد من ادراك المسائل التالية:

- المؤثرات المتعددة والظروف الحياتيّة التي بدأ فيها اهتمام الأديب بالعمل الأدبي موضوع الدراسة؟ ما المركبات والعقد الشخصيّة الأوليّة التي تحرك المضمون الرمزي لهذا العمل

- الاتجاه الذي تأخذه الرموز والاتجاهات التي تأخذها تفرعاتها نحو الأهداف العليا للنفس الإنسانية.

وكما يبدو لنا فإن بدوان يوظف جهوده للتمييز بين ما هو جمعي، وبين ما هو شخصي، في مجال اللاشعور، وفي عمليّة الإنتاج الأدبي. ويؤكد بدوان في هذا الخصوص أهميّة الرموز الأدبيّة وأهميّة الحركة الخياليّة الأدبيّة، التي تبدأ من العناصر الغريزيّة، وترتقي بها عن طريق التحويل والتسامي إلى المصاف العليا لطبقات النفس الإنسانيّة عند الكاتب.

فالرمز كما يوصف: نظام صادر عن القوانين الطبيعيّة للخيال والحلم، وهو نابع من عمق المركبات والعقد النفسيّة، إنه إسقاط دينامي

للعقد النفسيّة Complexes على ساحة التصور، إنه الفعل الرائع للخيال المبدع، وهو يأخذ مساره في سياق النشاطات الداخليّة الخلاقة للحلم ، ويشكّل بذلك مركز التصورات الأدبيّة. وعلى المحلل أن يكون قادرا على قراءة الصور والمجازات والرموز التي تفيض بالدلالات والمعاني.وتشكل هذه الصور والمجازات منطلق المحلل النفسي في الدراسة والتحليل إذ ينظر إليها بوصفها رموزا قابلة للتحليل.

ومن جهة أخرى يشير بدوان إلى مفارقة هامة قوامها أن وظيفة الأدب تتجانس مع وظيفة الحلم. وهو في هذا السياق يؤكد على الخاصة التعويضيّة للعمل الأدبي، بوصفه الأداة التي تحرر بعض النزعات المكبوته عند الأديب. وباختصار فإن بدوان يضع هذه الوظيفة في سياق دائرة الهيمنة اللاشعوريّة، وهو، في إطار ذلك كله، يعمل على إيجاد العلاقة العميقة بين الإبداع الأدبي وبين الغرائز الأوليّة: مثل الغريزة الجنسيّة وغريزة السيطرة إلخ... ولكن إذا كان فرويد يؤكد أهميّة التساميSublimation ، وهي العمليّة التي ترتقي بالغرائز الأوليّة المختلفة الى اشكالها الراقيّة، فإن المحلل النفسي لا يسعى أبدا إلى اختزال الأعلى إلى مستوياته الدنيا. ويضاف إلى ذلك، أيضا، أن فرويد يؤكد أن التحليل النفسي لا يمكنه أن يقول شيئا فيما يتعلق بالمسألة الخاصة بالموهبة الفنيّة والأدبيّة، أو حول الأدوات التي يستخدمها الفنان، أو التقنيات التي يوظفها. فهناك جانب واحد مكن وهو إدراك شروط اختيار الموضوع. وهذا يعني أن هدف التحليل

النفسي يسعى فحسب إلى وصف عمليات التأهيل الفني، ومتابعة إتجاهات التطور عند الفنان، ووصف الانتشارات الأولى وازدهار الحياة النفسية.

فالتحليل النفسي كما يعتقد بودوان لا يسعى إلى تصغير الأعمال الأدبيّة بل إلى استجلاء مكوناتها الأوليّة الطفوليّة والجنسيّة، وذلك إلى جانب العطاءات العليا للقلب والذكاء.

إنه لمن المؤكد أيضا أن العمل التحليلي، الذي يتناول النصوص، عمل بالغ التعقيد، وهو يتطلب الصبر والجدية. إذ يمكن للكلمة البسيطة على سبيل المثال أن تشير إلى عمليات ربط أو تحويل خاصة بالعمليات اللاشعورية. وبالتالي فإن المحلل الذي يعمل في مستوى التفاصيل مُكرَه على تكرار الإشارات وتفسيرها دون انقطاع. لقد ترتب على شارل بدوان أن يمارس هذا العمل بمهارة بالغة، ولا سيّما، في دراسته حول التحليل النفسي عند فيكتور هيجو، وهو العمل الذي ندعو القارىء إلى استطلاع جوانب عظمته. حيث نجد فيه خارطة جغرافيّة للعمق والمركبات الخاصة بالشعراء الكبار: مركب المشهديّة، ومركب أوديب، والعقدة الأخويّة، وهي المركبات التي توجد في أصل كتابه العمدة *Le Burgrave*، وفي اصل كتابه *قاتل الأب Le Parrcide* . ومن غير أن نضع في حسباننا كتابه *الشعور La Coscience* فإن عذاب القاتل يجسد رمزيّة النزعات الخاصة بعقدة القطع، وذلك في إطار العلاقة مع عقدة التدمير، التي نجدها عند هيجو بصورة دائمة.

ونجد مشاهد عقدة الإنسحاب *Complexe de retraite* في أعماله: *توركمادا Torqueumada*، و *ايفغاندس Eviradnus* ، ثم *الثالث والتسعون Quatre vingt treize*، وعقدة الإنسحاب هنا يرتبط بمركب الهروب أمام الأب. وتبدأ في عمله *هيرناني Hemani* مظاهر عقدة القوة، بينما تظهر عقدة الولادة *Complexe de naissance* في *الرجل الضاحك L'Homme qui rit*، وهنا في هذا الكتاب يعرض بدوان رؤيّة إجماليّة لملامح الصراعات الأساسيّة في لاشعور الشاعر، ويبيّن كيف تحدث لحظات التوازن النفسي عند الشاعر الكبير.

ثانيا: نقد التحليل النفسي: كاستون باشلار

Caston Bachelard: La Critique psychanalytique

تنطوي مقدمة البيرت بيكوان Albert Baguin في كتابه "*النفس الرومانسيّة والحلم "L'âme romantique et le rêve*" على نقد كبير ضد التحليل النفسي للفن: " يتناول التحليل النفسي للأدب العمل الفني بوصفه وثيقة، أو مجموعة من الأعراض، وينتهي إلى تحليل شخصيّة المؤلف وحياته وعصابه. وهذا الجهد التحليلي لا يأخذ بعين الاعتبار سوى المظاهر النفسيّة للكاتب، وهي مظاهر لها اهميتها الإنسانيّة، ولكنها تبقى مع ذلك خارجه عن طبيعة النص او النتاج الشعري والأدبي" ..

غالبا ما ينظر في واقع الأمر إلى التحليل النفسي للأدب

بصفته معالجة إكلينيكيّة: فالرجل هو المعنى بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن الاهتمام بالعمل يشكّل وسيلة من أجل الوصول إلى إدراك نفسيّة المؤلف الفرد. ومع ذلك فإن بيكوان ربما يجد صعوبة في زعمه بأن علاقات العمل الأدبي مع البنيّة النفسيّة، أو مع البنيّة النفسيّة اللاشعوريّة، توجد خارج القيمة الخاصة للعمل الشعري. ففي أعماله، المخصصة لدراسة الخيال الأدبي، يرفض باشلار الأساس الذي ينطلق منه النقد الموجه للتحليل النفسي، وهو بالتالي يركز على أهمية الدور الذي يتمثل في الحكم على أصالة العمل الأدبي. وهو بمقتضى هذه الرؤيّة يسعى إلى تحديد حركة الخيال التي تتحدد على أساس هذه العقدة أو تلك. وهذا يعني أن باشلار ينظر إلى التحليل النفسي للأدب بوصفه جزءا من قيمة الأدب نفسه.

مركب لوتريامونت Complexe de Lautréamont:

تمكن باشلار في دراسته لشخصية لوتريامونت (*كاتب أشعار مالدورور Chants maldoror الغريبة*) من إدراك أفضل لشاعريّة منحرفة ؛ حيث يستطيع القارىء أن يصبح أكثر تآلفا بالمعنى الاشتقاقي للكلمة مع المُرَكّب الذي ينهض به. لقد حاول بشلار في تحليله للوتريامونت أن يستند إلى إيحاءات آدلر، وهنا يكتشف باشلار مركبا حقيقيا للحياة الحيوانيّة عند الشاعر وهو مركب يصدر عن عدوانيّة فاضحة تميل إلى التحقيق الفوري. وذلك على أثر شعر عصابي يتطلب منا محاولة لإيجاد أنفسنا داخل نزقيّة كامنة.

الخيال ومواده الأساسيّة:

اتجهت بعض الدراسات الأخرى إلى تناول صدى اللاشعور داخل النفس الإنسانيّة في عناصر أربعة هي: الماء والهواء والتراب والنار. وهنا يظهر اتجاه باشلار النقدي الخاص بالأدب الذي يقوم على أساس من علم اللاشعور والخيال.

يعلن باشلار في كتابه *" بناء الروح العلميّة 1938"* *Formation de l'esprit scientifique* عن دهشته لأن الأوهام استطاعت أن ترسم حدود التطور العقلي عند الإنسان وآفاقه. وذلك جعله متشبثا بالتحليل النفسي للمعارف الموضوعيّة وذلك كله لتحديد هذه الأوهام الصادرة عن اللاشعور التي قدّر بأنها تشكّل عوائق أمام المعرفة الإنسانية. وهو في إطار ذلك يلاحظ أنه يوجد، حول موضوع واحد من الموضوعات كالنار على سبيل المثال، عدد كبير من الأوهام المستمرة. فإلى أي حدّ تكون فيه هذه الأوهام رائعة في صيغتها الحلميّة! ومن هنا يبدأ باشلار بدراسة هذه الهواجس والأحلام بذاتها ويحاول أن يربط بين الاتجاهات الإبداعيّة الخاصة بالمواد الأساسيّة للخيال والحلم التي تنادي دفائن العمق اللاشعوري.

ومن هذا المنطلق فإن العقائد الذاتيّة الخاصة بالنار تجد صورتها في كتاب التحليل النفسي للنار عام ١٩٣٩ La psychanalys du feu. وهو في إطار هذا الكتاب يحدد بوضوح وحدة الخيال الخاص

بالنـار التـي تتسم بمختلـف المركبـات والعقـد مثـل: عقـدة بروميتـي Complexe de Promethee نسـبة إلـى بروموتيـوس إلـه النـار، الـذي يرنو إلى الحضارة البشريّة الأولى، وهـو مـركب يجعل المـرء ينظـر إلـى النـار كموضـوع ممنـوع ومقدس. ثـم يشـير بعدهـا إلـى مركـب أمبيدوكل[٣٦] ؛ ثـم مـركب نوفـاليس Novalis، ثـم مركـب هوفمـان Hoffman[٣٧] ؛ ويعـد تحـليل عمل هوفمـان مـن أكـثر الأعمـال أهميّـة وخصوصيّة في هـذا المجـال وذلـك لأنهـا تشير إلى النار بوصفها نظـام الإخلاص الشعري المتماسك.

وينبثق في عمله الموسوم: *المـاء والأحـلام عـام ١٩٤١ L'au et les rêves* الشعور الذي يفرزه الحلم في صورة الماء. حيث يشـار

---

[٣٦] مركب أمبيدوكل Empedocl: يشير هذا المرّكب إلى رغبة المرء فـي الإختفـاء جسدا وروحا في السنة الهب، وهو نداء إلى الإحتراق حيث يتعانق الحب مع النـار، وغريـزة الحياة مـع غريـزة المـوت. وأمبيدوكل: شخصيّة ذات طابع أسـطوري معقد وهـو فيلسوف يوناني يعتقد أن الحياة تنشأ عن اجتماع العناصر الأربعة المـاء والتراب والهـواء والنـار. وقد عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وتروى عنـه حكايـات أسطوريّة منهـا أنـه رمـى نفسه في داخل فوهة بركان أثينا Ethen الملتهب بالنار إلى حدّ أنه أحدا لـم يعـثر عـلى أثر من جسده، وكان معاصروه يعتقدون أنه صعد إلـى السماء. ولكـن البركـان الخـادع بعد أن إبتلع أمبيدوكل لفظ نعليه سليمتين دون ضرر وكأنه يريد أن يكشف حيلـة الانتحـار المفـاخر فيه (المترجم) .

[٣٧] الكـاتب والموسـيقي الألمـاني أرنسـت تيـودور أمـادوس هوفمـان Ernst 1822-1976 théodor Amadeus Hoffman عـرف بكتاباتـه الأدبيّة الخياليّة (المترجم.)

هنا إلى مركب أوفيلي [٣٨] Complexe de Ophelie ثم إلى مركب كارون Caron، وإلى مركب نوسيكا Naucica ، فالماء يستدعي في الذاكرة صورة آلهة الماء وحواريه، ويرمز إلى التفكير في المرحلة الأخيرة وإلى تحللنا النهائي. وهنا يكتشف باشلار عند إيدكار بو Edgar Poe إخلاصه لماء خاص ثقيل ونائم يعطيه وحدة خياله.

الهواء وأوهامه: L'aire et ses Songes

في كتابه *الهواء وأوهامه* عام ١٩٤٣، يحاول باشلار أن يحلل الأوهام الهوائيّة: وذلك لأن خيالنا يحلق في الأجواء، وواحدنا يشعر كأنه يطير في مسابح الفضاء الخارجي. لقد عرف نيتشه Nietzshe الشاعر والفيلسوف بعقدة التحليق Complexe d' Hauteur حيث كتب في هذا الصدد يقول " أرواحنا أرواح حرة، هوائية، سعيدة !... فهو في هذه الصورة يتبدّى بوصفه شاعر القمم والصعود.

وفي النهايّة يدرس باشلار الخيال الارضي (نسبة إلى الارض) في عملين أساسيين هما: *الأرض وأحلام الارادة* *La terre et les rêveries de la* volanté، ثم *الأرض واحلام الاستقرار* عام ١٩٤٨ *La*

---

[٣٨] شخصيه من شخصيات شكسبر في تراجيديتّه المشهورة هاملت Hamlet وتعد هذه الشخصيّة من أكثر شخصيات شكسبير عذوبة ورقة: يصاب أوفيلي بالجنون لخيبة أمله في الحياة ثم يبدأ بقطف الأزهار بالقرب من شاطئ أحد الأنهار ثم يسقط في النهر ويموت (المترجم).

terre et les rêveries de repos . فالأرض تثير طاقة الصراع والعمل أو تدعونا إلى الراحة والهدوء. فنحن وبحسب توجه خيالنا يمكن أن نهتدي بهواجس الارادة، أو هواجس الراحة وأحلامها. ففي الحالة الأولى يمكن للطبيعة أن تتحول إلى مركب ميديوسMeduse عند هيسمانHuysmans ، أما في الحالة الثانيّة يمكن ان نعثر على الموضوعات الشعريّة والأدبيّة للأرض الأم، وعلى أساطير الكهوف والمتاهات وهنا يكمن مركب جوناس Jonas إلخ...

الصورة الأدبيّة وقيمتها:

تتماسك الموضوعات الخياليّة وتنبثق عن عقد ومركبات متجانسه اذا كانت تعبر عن موضوع واحد وهذا ما يذهب إليه باشلار. ويكون العمل الأدبي أصيلا إذا كان بعيدا عن الحركة الحقيقيّة للواقع وإذا كان ينطلق من احضان الخيال ؛ ويكون أكثر أصالة إذا كان ينبجس من عمق اللاشعور الاصيل. كتب باشلار في هذا الصدد يقول: *عندما يتم التعرف على مركب نفسي يكون الادراك أكثر عمقا وشموليّة لبعض الاعمال الشعرية*. وفي الواقع لا يمكن للعمل الشعري أبدا أن يمتلك وحدته إلا من خلال مركب أو عقدة محددة. ومن غير وجود المرّكَب فإن العمل ينفصل عن جذوره ، ولا يحقق تواصله مع اللاشعور وبالتالي فإنه يعاني من البرودة والتصنع.

يورد باشلار في كتابه" *الماء والأحلام*" *قائلا: يتوجب على النقد الأدبي، إذا كان يريد تجاوز قصوره، أن يتزاوج مع نقد نفسي يعطي الخيال سمته الدينامية وذلك وفقا للمركبات" العقد " الأصليّة.*

وهذا التواصل مع المركبات Complexes يهب القيمة اللاشعوريّة للصورة الأدبيّة ويعطيها أهميّة الحجر السحري. وعلى خلاف ذلك إذا كانت هذه الصورة تفتقر إلى روابطها مع اللاشعور فإنه لن يكون لها أي صدى عند القاريء وستبدو صورة متكلفة صنعيّة غير نقيّة لأنها لا تنطلق من شي ينطوي على أهمية.

فباشلار يؤكد هنا على أهميّة المصادر اللاشعوريّة للإبداع الخيالي والأدبي وبالتالي فإن الصور الأدبيّة الطافحة بالغنى والثراء هي بالضرورة صور لاشعوريّة.[٣٩]

---

[٣٩] تعد المحاولات النقديّة التي سجلها بارث R.Barthes وآخرون، التي تأخذ تسميّة النقد الجديد في أكثر الحالات، امتدادا لاعمال وآراء باشلار. ومن جهة أخرى هناك روابط اتصال واضحة بين ابحاث لاكان والتطور الممكن للنقد الأدبي في مجال التحليل النفسي. وهي محاور وروابط لا يمكن مناقشتها هنا في هذا الكتاب ولذلك يمكن العودة إلى كالانسيير A. Calancier في كتابة التحليل النفسي والنقد الأدبي في عام ١٩٧٣ .هذا ويمكن العودة إلى العدد الخاص من مجلة Bulletin de psychologie وهو عدد مكرس لدراسة التحليل النفسي للأعمال الأدبيّة.

الخاتمة

يسرنا في خاتمه هذا الكتاب أن يكون القارىء قد كوّن فكرة مناسبة عن التطور الحاصل في مجال علم نفس اللاشعور، وذلك منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى الوقت الماضر. لقد شاهدنا في سياق هذا العمل، كيف ظهر مفهوم اللاشعور، في البدايّة، عند الفلاسفة المعروفين الذين أولوا المفاهيم النفسيّة اهتمامهم، ولا سيّما هذه التي تتصل بأعماق الحياة النفسيّة للإنسان. ولاحظنا كيف اندفعت مئات التجارب لدراسة النشاطات اللاشعوريّة العفويّة: كحالات الشرود، والتنويم المغناطيسي، وازدواج الشخصيّة. وقد ظهر لنا جليّا أن مفهوم اللاشعور صار هدفا للدراسة في مختلف مظاهره النفسيّة بدءا من الآليّة النفسيّة ووصولا إلى الأفكار التسلطية.

ومع ذلك كله فإنه يمكن القول بجلاء أن وضوح الأفكار الخاصة

بـالعمق اللاشعوري يدين بقوة لعبقريّة فرويد، ولا سيّما فيما يتصل بأنواعه المختلفه: كاللاشعور الأساسي، واللاشعور اللغويّ.

لقد كان لاكتشافات فرويد العملاقة : الخاصة بالكَبْت، والتمييز بين مفهومي ما قبل الشعور وبين اللاشعور، وديناميّة الحياة العقليّة، واكتشافاته الخاصة بالعمليات التي تهيمن على الحياة الداخليّة للاشعور، وهذه التي تحدد علاقات التبادل مع الشعوب، أن تجعل من فرويد المنظر الأفضل لمباحث اللاشعور وصاحب الفضل الأعظم في استقصاء مجاهل هذه المسألة. ومن هذا المنطلق أولياه مكانة خاصة وأساسيّة داخل هذا العمل الصغير.

والحق يقال: إن بوابات هذا الكتاب ومداخله ستبقى مشرعة، لأن تقدم علوم البيولوجيّة، وعلم النفس التجريبي، وتطور الأبحاث الحديثة في مجال الأنتربولولوجيه وأنتربولوجية اللغة، سيساعد من غير أدنى شك على تقدم علم اللاشعور الذي كان فرويد فنانه الأول.

ويسرنا في النهاية أن نرجو لهذا العلم أن يحقق مسعاه وغايته، وذلك لأنه كلما استطاع المرء أن يعرف نفسه جيدا استطاع أن يدرك الآخر عبر عمليّة التوحد بشكل أفضل ؛ أو كما يقول لاكان، كلما أدرك الفرد القوى الغامضه التي تحركه نحو الأفضل أو نحو الأسوأ يستطيع أن يوجه نفسه على مسار الدروب التي حددها له القدر.

بيبلوغرافيا مختصرة

A. adler : *Le tempérament nerveux ; Connaissanc de l'homme* (Payot)

G.Bachellard : *La psychanalyse du feu* (Gallimard) : *L'eau et les rêves ; L'air et les songes ; La terre et la rêveries de la volonté ; La terre et les rêveries du repos ; Lautréament (corti)* .

G.Baudouin : *Psychologie de l'art* (Alcan) .

G.Blum: *Les théories psychanalytiques de la personalité* (P.U.F) .

O.Feninchel : *La thorie psychanalytique des névroses* (P.U.F) .

S.Freud : *Le moi et les mécanismes de la defense* (P.U.F.) ; *Introduction à la psychanalyse ; La psychopathalogie de la vie quotidienne ; Essais de psychanalyse ; Totem et tabau* (Payot) ; *Interprétation des rêves* (P.U.F.) ; *Métapsychologie ; Trois essais sur la théorie de la sexuelité* (Gallimard) ; *Inhibition , symptome , angoisse ; Abrégé de la psychanagyse ; La naissance de la psychanalyse ; Nouvelles conférences sur la psychanalyse ; Lettres 1887-1902; De la technique psychanalatique ; Cinq psychanalyse* (P.U.F.).

P.Janet : *L'automatisme psychologique; Névrose et Idées fixes ; L'Etat mentales des hystériques (Alcan); Les Névroses* (Flammarion).

E.Jones : *La vie et l'oeuvre de Freud* (P.U.F.) .

C.Jung : *L'Inconscient* (Payot) ; *Le moi et l'Inconscient* (Gallimard) ; *L'homme et to découvert de son âme* (Mont-Blanc) .

M.Klein : *Essais de psychanalyse* (payot) ; *La psychanalyse des enfants (P.U.F.)* .

J.Lacan : *Ecrits* (seuil).

D.Lagache : *L'unité den la psychologie* (P.U.F.) ; *La psychanalyse* (P.U.F.).

J.Lapalache et J.B.Pontalis : *Vocabulaire de la psychanalyse* (P.U.F.) .

O.Mannonie : *Freud* (seuil).

O.Rank : *Le Traumatisme de la naissance* .

المراجع المختصرة وفقاً للترجمة العربية

أ.أدلر: المزاج العصبي، معرفة الإنسان

ج. باشلار: التحليل النفسي للنار، الماء والأحلام، الهواء وأحلامه، الأرض وأوهام الإرادة، الأرض وأحلام الاستراحة، لوتريامونت.

ج. بودوان: التحليل النفسي للفن.

ج. بلوم: نظريات التحليل النفسي للشخصية.

و. فينيشل: نظرية التحليل النفسي للعصابيين.

سيغموند فرويد: الأنا وآليات الدفاع، مقدمة في التحليل النفسي، الأمراض اليومية للحياة النفسية، محاولة في التحليل النفسي، الطوطم والتابو، تفسير الأحلام، ماوراء علم النفس، ثلاث محاولات في نظرية الجنسية، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ميلاد التحليل النفسي، رسائل أعوام ١٨٨٧-١٩٠٢ من تقنيات التحليل النفسي، خمس حالات في التحليل النفسي.

بيير جانيه: الآلية النفسية، العصاب والأفكار الوسواسية، الحالة الذهنية للهستيريين، العصابيون.

ميلاني كلاين: محاولة في التحليل النفسي، التحليل النفسي للأطفال.

جان لاكان: الكتابات.

د.لاكاش: وحدة علم النفس، التحليل النفسي.

ج. لابلانش & ج.ب. بونتاليس: معجم التحليل النفسي.

و. ماتوني: فرويد

و. رانك: صدمة الولادة.

الفهرست

توطئة ٩

مقدمه ١٩

القسم الأول: ٢٥

اللاشعور قبل فرويد

الفصل الأول: فلسفات اللاشعور ٢٦

أولا ـ شوبنهور. ٢٧

ثانيا ـ كاروس. ٢٩

ثالثا ـ هارتمان. ٣١

خلاصة. ٣٤

الفصل الثاني: النتائج الأولى التجريبيّة ٣٧

أولا ـ الشرود والكتابة الآلية ٣٩

ـ الكتابة الآلية اللاشعورية ٤١

ـ الشرود ٤٣

ثانيا ـ السرنمة والتنويم ٤٥

ـ الإيحاء ٤٥

ـ التنويم المغناطيسي ٤٦

ـ السرنمة ٤٧

ـ إيحاءات ما بعد التنويم ٤٩

ثالثا ـ بيير جانيه ٥١
- اللاشعور والإنحلال ٥٢
- الهستيريا والأفكار التسلطية ٥٤
- من جانيه إلى فرويد ٥٧

القسم الثاني ٥٩

اللاشعور عند فرويد

الفصل الآول: اللاشعور والصراعات النفسيّة ٦٠

أولا ـ الأعمال الأولى ٦١
- رحلاته إلى باريس ونانسي ٦٢
- ملاحظات جوزيف برويز ٦٣
- خلاصات أولى ٦٥

ثانيا ـ منهج التداعي والكَبْت. ٦٨
- المنهج الاستدعائي ٦٩
- الكبت ٧٣

ثالثا ـ الأعراض والصراعات ٧٦
- الصراعات العصبية ٧٦
- الأعراض المرضية ٧٧
- مقارنة مع جانيه ٨٠

رابعا ـ الأحلام: رسائل اللاشعور ٨١
- نظريات الأحلام قبل فرويد ٨٢

- محتوى الحلم الظاهر والكامن ٨٤
- الحلم والرغبة ٨٧
- كبت الأحلام ٨٨
- مواد الحلم ٩٢
خامسا ـ الأفعال الناقصة.. ٩٣
- الهفوات ٩٤
- الإدراكات الخاطئة ٩٧
- النسيان ٩٧
الفصل الثاني:اللاشعور والجنس. ١٠١
أولا ـ نظريات الجنس ١٠٣
- المراحل الأولى ١٠٣
- عقدة أوديب ١٠٦
- مرحلة البلوغ وما قبل البلوغ ١٠٧
ثانيا ـ العصاب وتطور الجنسيّة. ١٠٨
- النكوص والتثبيت ١٠٩
- التثبيت على الأبوين ١١١
- المخطط الأول للأعراض المرضيّة عند العصابيين ١١٢
- العصاب والذهان ١١٤
ثالثا ـ تشكّل الأعراض المرضيّة ١١٦
- الحلم والجنس ١١٦

- التأويل والتفكر ١٢٠
- التكثيف ١٢٠
- الإزاحة ١٢٢
الدراماتيّة ١٢٤
- رمزية الأحلام ١٢٥
- الأحلام والنكته ١٢٨
الفصل الثالث: الحياة العقليّة واللاشعور ١٣١
أولا ـ التصورات الأولى.. ١٣٣
- اللاشعور وما قبل الشعور ١٣٣
- الميول واللاشعور ١٣٤
- الرقابة ١٣٦
ثانيا ـ تعديلات خاصة بالتصورات الأولى.. ١٣٧
- الحصر ١٣٨
- آليات الدفاع ١٤٠
- الهو والأنا والأنا الأعلى ١٤١
- التوازن النفسي ١٤٣
- العمليات الشعورية واللاشعورية ١٤٤
القسم الثالث: ١٤٧
اللاشعور بعد فرويد
الفصل الأول: نظريات اللاشعور بعد فرويد.. ١٤٨

أولا ـ آدلر ومشاعر الدونيّة ١٥٠
- أحاسيس الضعف وإرادة القوة ١٥٠
- الأحلام ١٥٢
- العصابيّون ١٥٣
- اللاشعور الأدلري ١٥٤
ثانيا ـ يونغ. ١٥٥
- يونغ واللاشعور الجمعي ١٥٥
- النماذج النفسيّة: الإنبساط والإنطواء ١٥٦
- اللاشعور الجمعي ١٥٨
- يونغ وفرويد ١٦٠
ثالثا ـ ميلاني كلاين ١٦١
- البعد الخيالي والمرحلة ما قبل الأوديبية ١٦١
- القبيح والحسن ١٦٢
- القهر والإنفصال ١٦٣
- وضعية الإكتئاب والتناقض الوجداني ١٦٤
- المراحل الأساسيّة لعقدة أوديب ١٦٥
- اللاشعور الكلايني ١٦٦
رابعا ـ لاكان والعودة إلى فرويد ١٦٦
- مرحلة المرآة ١٦٧
- النسق الرمزي وعقدة أوديب ١٦٩

- بنية اللاشعور وبنية اللغة ١٧٠
- الدال والمدلول والكبت ١٧٢
- اللاشعور وخطاب الآخر ١٧٥
- اسم الأب والخصاء الرمزي ١٧٦
- وضعية لاكان ١٧٨
الفصل الثاني: اللاشعور والشعور الأدبي. ١٨٠
أولا ـ التحليل النفسي للأدب ١٨١
- فرويد والقرابة بين الفن والحلم ١٨١
- أوتو رانك والأساطير والأدب ١٨٢
- تطور التحليل النفسي للأدب ١٨٣
- تحليل شارل بدوان ١٨٤
ثانيا ـ نقد التحليل النفسي: غاستون باشلار ١٨٨
- مركب لوتر يامونت ١٨٩
- الخيال ومواده الأساسيّة ١٩٠
- الهواء وأوهامه ١٩٢
- الصورة الأدبية وقيمتها ١٩٣
الخاتمة ١٩٥
بيبلوغرافيا مختصرة ١٩٧
المراجع المختصرة وفقاً للترجمة العربية ١٩٨
الفهرس ١٩٩

يرسم هذا الكتاب مسار رحلة العقل الإنساني ، في سعيه الدائم ، لاكتشاف خبايا النفس ، واكتناه خفاياها ، واستجلاء معانيها، والكشف عن كونيّة أسرارها . وهو في سياق ذلك يستعرض معطيات علم النفس التي كُرست لدراسة مجاهل النفس الإنسانية وإدراك هويتها .

في هذا الكتاب ترتسم حدود المتاهات المجهولة للنفس الإنسانيّة، وتومض ملامح العمق اللاشعوري ، وتتجلى معاني العقل الباطن ، وتنفلت أسرار الكينونة النفسيّة من عقالها الوجودي ، وذلك كله ، في إطار صورة علمية ، تتميز بالجدة والأصالة .

يستثير هذا الكتاب ، في قارئه ، دوامات إحساس ساحر تجعل من رحلته في غياهب العقل الباطن أشبه برحلة في أغوار غابات أسطورية مسحورة ، تفيض بآيات الغرابة وتنتفض بأروع صور الجمال ، وتنبض بأجمل أسرار الحياة

د . علي وطفة